دكتور
أحمد هنداوي هلال
أستاذ البلاغة والنقد
جامعة الأزهر



الاستعارة

بين السكاكي وابن أبي الإصبع المصري

دراسة موازنة

مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
القاهرة تليفون: ٢٣٩١٧٤٧٠
فاكس: ٢٣٩٠٣٧٤٦

اسم الكتاب:
الاستعارة بين السكاكى
وابن أبى الإصبع المصرى
دراسة وموازنة
اسم المؤلف: الدكتور أحمد هنداوى هلال
الطبعة الأولى: ١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م
مكتبة وهبة ١٤ شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة.
٨٠ صفحة ١٧ × ٢٤ سم
رقم الإيداع : ٢٢١٠ / ٢٠١١
الترقيم الدولى: I.S.B.N.
977-225-293-7



دار الكتب والوثائق القومية

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

هلال، أحمد هنداوى
الاستعارة بين السكاكى وابن أبى الإصبع المصرى:
دراسة موازنة / أحمد هنداوى هلال ط١ ، -
القاهرة: مكتبة وهبة، ٢٠١١
٨٠ ص؛ ٢٤سم.
تدمك ٩٧٧ ٢٢٥ ٢٩٣ ٧
١ - البلاغة العربية - البيان
أ - العنوان
ديوى ٣ر٤١٤

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد الصادق الأمين وعلى آله وصحبه أجمعين.

(وبعد)

فالاستعارة فن من فنون البيان، وشعبة من شعب البلاغة تضفى على الأسلوب جمالا، وبهاء، وتكسوه روعة وحسنا، وقد أثنى عليها جهابذة البيان، وعشاق السحر الحلال، وبينوا أنها قمة البلاغة الشامخة، وذروتها السامقة فقد مدحها الشيخ عبد القاهر الجرجاني، وأشار إلى أنها" تبرز هذا البيان.... في صورة مستجدة، تزيد قدره نبلا، وتوجب له بعد الفضل فضلا، وإنك لتجد اللفظة الواحدة قد اكتسبت فيها فوائد حتى تراها مكررة في مواضع، ولها في كل واحد من تلك المواضع شأن مفرد، وشرف منفرد، وفضيلة مرموقة، وخلابة مومومقة، ومن خصائصها التي تذكر بها، وهى عنوان مناقبها أنها تعطيك الكثير من المعاني باليسير من اللفظ حتى تخرج من الصدفة الواحدة عدة من الدرر، وتجنى من الغصن الواحد أنواعا من الثمر"[1].ثم يقول: ".... فإنك لترى بها الجماد حيا ناطقا، والأعجم فصيحا، والأجسام الخرس مبينة، والمعاني الخفية بادية جلية [2].

---

(١) أسرار البلاغة ص٤٢، ٤٣ تعليق محمود شاكر.

(٢) نفسه.

وهذا العمل سيتناول الاستعارة على حسب العنوان الآتي :

(الاستعارة بين (السكاكي) وابن أبى الإصبع المصري دراسة وموازنة)

وهو الموضوع الذي كلفتني بإعداده لجنة ترقية الأساتذة المكرمة بقسم البلاغة والنقد في جامعة الأزهر– وغنى عن البيان أن الرجلين علمان من أعلام البلاغة لهما فيها ذكر، وفكر، وهما في غنى عن التعريف والتنويه، وقد وجدت المباحث المشتركة بينهما قليلة، فكل له وجهته، ونهجه، (فالسكاكي) مهتم بترسيخ قواعد البلاغة، ورفعة مبناها الذي وضع لبناته من سبقه من البلاغيين أمثال الشيخ(عبد القاهر الجرجاني) (والزمخشرى) والإمام (فخر الدين الرازي) وغيرهم .

– و(ابن أبى الإصبع) معنيٌّ في المقام الأول بتناول بلاغة القرآن، وما فيه من فنونها، وصنوفها، وقد أعانني الله – سبحانه وتعالى – على دراسة الاستعارة عند كل منهما والموازنة بين المسائل المشتركة بينهما، ودراسة الموضوعات التي انفرد بها كل منهما – قدر الجهد والطاقة – وقد رأيت أن أتناول هذا الموضوع بعد المقدمة في ثلاثة فصول، وخاتمة .

الفصل الأول : تناولت فيه المباحث المشتركة بينهما، والفصل الثاني : تناولت فيه المباحث التي انفرد بها السكاكى، والفصل الثالث : تناولت فيه المباحث التى انفرد بها (ابن أبى الإصبع) .

فعرضت في صدر الفصل الأول ما أورده (ابن أبى الإصبع) من تعريف الاستعارة عند الرماني، والفخر الرازي، ونقده لما قاله الرمانى وعدم رضاه عن تعريف الفخر الرازى ثم عرضت تعريفه الذي عرفها به، وآثره على غيره، وقفيت ذلك بإيراد تعريف (السكاكي) لها، وما لوح إليه من تعريف(الرماني) و(الفخر الرازي) دون أن

يصرح باسم كل منهما، وكذلك أوردت أركان الاستعارة عندهما، وعالجت في هذا الفصل أيضا ما ذكره كل منهما من أنواع الاستعارة باعتبار الطرفين، والجامع، وهي خمسة، وأبديت بعض الملحوظات على بعض الأمثلة، ووازنت بين بعض منها، وتناولت أيضا ترشيح الاستعارة، وتجريدها عندهما، وذكرت أن (السكاكى) مثَّل لهما بأمثلة مصنوعة، وصرح بأن الترشيح يأتي عقب تمام الاستعارة، وأتى بشواهد شعرية تؤازر ترشيحها، بينما استشهد لها (ابن أبى الإصبع) ببعض الآيات القرآنية، وصرح بأن الترشيح يأتي قبل الاستعارة، ودعمت رأي السكاكي بكلام (الزمخشري) وأوضحت التجريد في آية النحل ﴿**فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ**﴾ من خلال كلام علماء البلاغة، لأن (ابن أبى الإصبع) مثل بها وتركها دون بيان، وتوضيح.

وفي الفصل الثاني تناولت المباحث التي انفرد بها (السكاكي) وعرضت في أوله ما أفاض فيه من تبيان كون الاستعارة مجازا لغويا. أو عقليا...,وترجيحه أنها مجاز لغوي، وعزز هذا الرأي بالأدلة القوية، ووفق بين ادعاء دخول الشبه في جنس المشبه به، ونصب قرينة مانعة من إرادة المشبه به، عن طريق التأويل، بجعل المستعار منه قسمين متعارف وغير متعارف، والقرينة تمنع إرادة المتعارف.

وعرضت في هذا الفصل أيضا الاستعارة التصريحية، والتخييلية عنده، وبينت ضروب التصريحية التي ذكرها، وهي التصريحية مع التحقيق، والتصريحية المتخيلة، والتصريحية المحتملة للتحقيق، والتخييلية، ورصدت رأي بعض البلاغيين في نقض مذهبه في الاستعارة التخييلية التي جعلها وهمية محضة، لا وجود لها لاحسا، ولا عقلا، وعرضت رأيه في الاستعارة بالكناية، ونقد البلاغيين له أيضا، وكذلك أوردت رأيه في إدخال المجاز العقلي في الاستعارة بالكناية، ورفض البلاغيين له، واستعرضت ما كتبه عن الاستعارة التبعية في شتى ألوانها، وفروعها، وقرينتها، ورأيه

في رد التبعية إلى المكنية بنقلها إلى قرينتها من فاعل ومفعول، ونحوهما، وأتبعت ذلك بتفنيد بعض البلاغيين لما ذهب إليه.

وفي الفصل الثالث تناولت المباحث التي انفرد بها (ابن أبى الإصبع) وأشرت إلى أنه استعمل مصطلحات لم تعهدها كتب البلاغة المشهورة، مثل إطلاق الكثيف على المحسوس، واللطيف على المعقول، ومثل مجيء الكلام على وجهه، وعلى غير وجهه، وجعله الذي جاء على وجهه أقل درجة في البلاغة من الذي جاء على غير وجهه، واستعرضت ما ذكره من التباس الاستعارة بالتشبيه أحيانا، وألقيت الضوء على استعارة (الفحمة) لظلمة الليل وقت العشاء، ومدحه استعارات امرئ القيس في قوله المشهور (فقلت له لما تمطى بصلبه..)

وهنا أود أن أشير إلى أن (السكاكي) رحمه الله – له آراؤه ونظراته التي انفرد بها، وشغلت البلاغيين من بعده وتفرقت بهم السبل في فهمها، وتوجيهها، ومناقشتها، ولا أدعي أنني تتبعت شعابها، أو أحطت بدقائقها.

(ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشدا)

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

دكتور

أحمد هنداوي عبد الغفار هلال

الأستاذ المساعد بكلية اللغة العربية بالمنوفية

قسم البلاغة والنقد

ذو الحجة ١٤٢٤هـ

فبراير ٢٠٠٤م

الفصل الأول

(المباحث المشتركة بينهما)

- تعريف الاستعارة عند ابن أبي الإصبع.
- تعريف الاستعارة عند السكاكي.
- موازنة بين تعريف الاستعارة عندهما.
- أركان الاستعارة عند السكاكي.
- أركان الاستعارة عند ابن أبي الإصبع
- أنواع الاستعارة باعتبار الطرفين والجامع عند السكاكي.
- أنواع الاستعارة باعتبار الطرفين والجامع عند ابن أبي الإصبع.
- ترشيح الاستعارة وتجريدها:

  ١- عند السكاكي.

  ٢- عند ابن أبي الإصبع.

تعريف الاستعارة عند ابن أبى الإصبع

أورد عدة تعريفات للاستعارة من كلام السابقين، ولم يرض عنها، أو يقتنع بها، واختار لها تعريفا من عنده، وأود قبل ذكر تعريفه أن أعرض التعريفات التي ذكرها، وعقب عليها، أو لم يعقب.

أولا : تعريف الرماني

وقد عرض تعريف (الرماني) في كتابيه مع اختلاف في العرض، فقال في (التحرير والتحبير) : "حدُّ الرماني الاستعارة بأن قال هي تعليق العبارة على غير ما وضعت له في أصل اللغة على سبيل النقل"(١).

وكرره في (بديع القرآن) مع ضرب من البسط، والنقد، وذلك في قوله : "قد اختلف في تعريف الاستعارة فقال (الرماني) هي تعليق العبارة على غير ما وضعت له في أصل اللغة على سبيل النقل"(٢).

وذكر في عقب التعريف نقد الإمام (فخر الدين الرازي) له فقال "وأبطل ابن الخطيب ذلك من أربعة أوجه :

الأول : أنه يلزم أن يكون كل مجاز استعارة، وذلك باطل.

الثاني : أن تكون الأعلام المنقولة استعارة، وهو محال.

الثالث : أن يكون ما استعمل من اللفظ على سبيل الغلط في غير موضعه للجهل به استعارة، وهذا الوجه عندي فيه نظر(٣)".

---

(١) التحرير والتحبير ص٩٧ . (٢) بديع القرآن ص١٧ .

(٣) قوله وهذا الوجه عندي فيه نظر من كلام (ابن أبي الإصبع) لأنه نقل هذه النقود بالمعنى. ينظر نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ص٨١، ٨٢ .

الرابع: أن هذا التعريف يعني تعريف (الرماني) لا يتناول الاستعارة التخييلية"[١].

ثانيا: تعريف الإمام الفخر الرازي

وبعد إيراد هذا النقد، ذكر تعريف (الفخر الرازي) نفسه قائلا: "... وقال فخر الدين والأقرب أن يقال الاستعارة ذكر الشيء باسم غيره، وإثبات ما لغيره له، للمبالغة في التشبيه، فقولنا ذكر الشيء باسم غيره احتراس عما إذا صرح بذكر المشبه، كقولك (زيد أسد) فإنك ما ذكرت زيدا باسم الأسد، بل ذكرته باسمه الخاص، فلا يكون استعارة، وقولنا وإثبات ما لغيره له إنما ذكرناه لتدخل فيه الاستعارة التخييلية، وعندي في هذا الموضع نظر أيضا[٢] وقال أعنى (فخر الدين الرازي) ويقال الاستعارة عبارة عن جعل الشيء الشيء، أو جعل الشيء للشيء للمبالغة في التشبيه، كقولك لقيت أسدا، وأنت تعني أنك لقيت شجاعا، وعندي في هذا الموضع الآخر نظر أيضا"[٣].

ويتابع (ابن أبى الإصبع) توضيح تعريف (الفخر الرازي) قائلا: "... وقال أعني فخر الدين الاستعارة جعل الشيء للشيء كقول لبيد: (إذ أصبحت بيد الشمال زمامها) فأثبت اليد للشمال وغرضه - يقصد الشاعر لبيد - قدرة الشمال غلى التصرف باليد"[٤].

واضح من كلام الإمام (الرازي) أنه يرسم معالم كل من الاستعارة التصريحية،

---

(١) بديع القرآن ص ١٧، ١٨ .
(٢) هذا أيضا من كلام ابن أبي الإصبع.
(٣) بديع القرآن ص ١٨ .
(٤) نفسه ص ١٨، ١٩ .

والمكنية، وقرينتها الاستعارة التخييلية، وهو في ذلك متبع سنن الشيخ(عبد القاهر الجرجاني) ومقتف أثره، وعبارات(الشيخ) تتردد في كلامه، ومعلوم أنه أغرم باستيعاب كلامه، وتلخيصه، وسيأتي في هذا العمل - إن شاء الله - زيادة بيان لهاتين الاستعارتين التصريحية، والمكنية.

ثالثا : تعريف ابن المعتز

أورد (ابن أبى الإصبع)تعريف(ابن المعتز) للاستعارة في(التحرير والتحبير) ولم يعقب عليه بشيء فقال: "وقال ابن المعتز هي استعارة الكلمة لشيء لم يعرف بها من شيء قد عرف بها" (١).

تعريف (ابن أبى الإصبع) نفسه:

ظهر - مما سبق - أن(ابن أبى الإصبع) قد رفض تعريف(الرماني) ولم يرض عن تعريف (الفخر الرازي) تمام الرضا، ولذلك أتى بتعريف لها من تلقاء نفسه، وأعجب به، فذكره في كتابيه، وقد مثل لها في أحدهما بثلاثة أمثلة: **أولها** من التصريحية، **وثانيها** من المكنية **والثالث** محتمل لهما، فقد قال في (التحرير والتحبير) عقب تعريف الفخر الرازى ... وقلت هى تسمية المرجوح الخفي باسم الراجح الجلى، للمبالغة في التشبيه كقول الله تعالى ﴿ **وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ** ﴾ [الزخرف: ٤] وكقوله سبحانه وتعالى ﴿ **وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ** ﴾ [الإسراء: ٢٤] وكقوله عز وجل ﴿ **وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا** ﴾ [مريم: ٤]" (٢).

وقال في(بديع القرآن) إثر تعريف (الفخر الرازي) :

"وقلت أنا الاستعارة تسمية المرجوح الخفي باسم الراجح الجلى وهذا المعنى وإن

---

(١) التحرير والتحبير ص٩٧

(٢) التحرير والتحبير ص٩٧، ٩٨ .

كان غير قول (فخر الدين) رحمه الله هي جعل الشيء للشيء للمبالغة في التشبيه، لأنك إذا سميت المرجوح الخفي باسم الراجح الجلي، فقد جعلت ما للراجح الجلي للمرجوح الخفي، من الرجحان، والظهور، فتكون قد بالغت في تشبيه المستعار له بالمستعار منه، فالعبارة الثانية أرشق."[١].

ويبدو لي أن كلمة الخفي في قوله (تسمية المرجوح الخفي باسم الراجح الجلي) فيها تقليل من شأن القرينة، وغض من قيمة الاستعارة، وتعبير البلاغيين في كتبهم عن المستعار له بالمطوي، أو المتروك، أو المحذوف أفضل، وأدق من تلك الكلمة.

تعريف الاستعارة عند السكاكي

حديث السكاكي حول تعريف الاستعارة ليس مذكورا في مكان واحد، فقد حكى في أحد المواضع حدها عند السلف، ومثل لها بأمثلة موجزة، ثم عرض له في صدر حديثه عن الاستعارة بنوع من التفصيل، وخص كل نوع منها في موضعه بمزيد من البسط، والشرح، والتدقيق، والتحقيق، فقد أشار في ختام كلامه عن الاستعارة التبعية إلى تعريف علماء السلف للاستعارة، وذكر تعريف(الرماني) و(الفخر الرازي) دون أن يصرح باسمهما:

أولا: تعريف الرماني:

قال السكاكي: "لا بأس أن أحكي لك ما عند السلف في تعريف الاستعارة حدُّها عند بعضهم تعليق العبارة على غير ما وضعت له في أصل اللغة على سبيل النقل للإبانة" [٢] وهذا هو تعريف (الرماني) كما ذكره (ابن أبي الإصبع).

---

(١) بديع القرآن ص١٩ .

(٢) المفتاح ص١٨١، ١٨٢ وينظر النكت في إعجاز القرآن ص٨٥ .

ثانيا: تعريف الفخر الرازي

وأشار إلى تعريف (الرازي) ونسبه إلى أكثر علماء السلف، وذلك فيما يبدو - إشارة إلى الشيخ عبد القاهر الجرجاني ومن لف لفهما فقال" ...وعند الأكثر- يقصد حدها عند الأكثر- جعل الشيء الشيء، لأجل المبالغة في التشبيه كقولك رأيت أسدا في الحمام، وجعل الشيء للشيء لأجل المبالغة في التشبيه، كقولك لسان الحال، وزمام الحكم ولا أزيد على الحكاية"[١].

وسيردد هذه الأمثلة أثناء تناوله للاستعارة التصريحية والمكنية، وقوله(لا أزيد على الحكاية) يقصد فيما يبدو أنه لا يريد التعقيب على التعريف عند السلف، بمدح، أو قدح، مع أنه استثمر تعريف (الإمام) وأفاد منه كما سيتضح - فيما سيأتي في تعريفه للاستعارة.

تعريف الاستعارة عند السكاكي نفسه:

من المعلوم أن الاستعارة مجاز لغوي علاقته المشابهة بين المستعار له، والمستعار منه، وهي مأخوذة من العارية كما جاء في (لسان العرب)[٢] وقد بين السكاكي خلال تعريفه للاستعارة - كما سيأتي- في الفصل الذي عقده للحديث عنه لماذا سميت بهذا الاسم، فقال في بيان سبب التسمية: "وسمي هذا النوع من المجاز استعارة، لمكان التناسب بينه، وبين معنى الاستعارة، وذلك أنَّا متي ادعينا في المشبه كونه داخلا في حقيقة المشبه به، فردا من أفرادها برز فيما صادف من جانب المشبه به، سواء كان اسم جنسه، وحقيقته، أو لازماً من لوازمها في معرض نفس المشبه به نظرا

---

(١) المفتاح ص١٨٢ .

(٢) لسان العرب (عير).

إلى ظاهر الحال من الدعوى، فالشجاع، حين دعوى كونه فردا من أفراد حقيقة الأسد يكتسى اسم الأسد اكتساء الهيكل المخصوص إياه نظرا إلى الدعوى، والمنية حال دعوى كونها داخلة في حقيقة السبع إذا أثبت لها مخلب، أو ناب ظهرت مع ذلك ظهور نفس السبع معه... وهذا شأن العارية، فإن المستعير يبرز معها في معرض المستعار منه لا يتفاوتان إلا في أن أحدهما إذا فتش عنها مالك، والآخر ليس كذلك"(١).

وهذا المعنى الذي ذكره السكاكي في سبب تسميتها استعارة قد عرض له الإمام العلوي في طرازه بأسلوب أوضح، واستيفاء أبين، وأملح، وذلك في قوله: "اعلم أن الاستعارة المجازية مأخوذة من الاستعارة الحقيقية، وإنما لقب هذا النوع من المجاز بالاستعارة... لأن الواحد منا يستعير من غيره رداء ليلبسه، ومثل هذا لا يقع إلا من شخصين بينهما معرفة، ومعاملة، فتقتضي تلك المعرفة استعارة أحدهما من الآخر، فإذا لم يكن بينهما معرفة بوجه من الوجوه، فلا يستعير أحدهما من الآخر من أجل الانقطاع، وهذا الحكم جار في الاستعارة المجازية، فإنك لا تستعير أحد اللفظين للآخر إلا بواسطة التعارف المعنوي، كما أن أحد الشخصين لا يستعير من الآخر إلا بواسطة المعرفة بينهما"(٢).

واضح أنه يريد أن يلقي الضوء الكاشف على العلاقة بين المستعار منه، والمستعار له، والوصلة التي تربط بينهما كالشجاعة بين الأسد، والرجل الشجاع – مثلا –.

أما تعريفها في الاصطلاح: فقد عرفها السكاكي تعريفا جامعا للاستعارتين التصريحية والمكنية، فقال: "هي أن تذكر أحد طرفي التشبيه، وتريد به الطرف الآخر

---

(١) المفتاح ص ١٧٤ .

(٢) الطراز ١ /١٩٨ .

مدعيا دخول المشبه في جنس المشبه به دالا على ذلك بإثباتك للمشبه ما يخص المشبه به، كما تقول في الحمام أسد، وأنت تريد به الشجاع مدعيا أنه من جنس الأسود، فتثبت للشجاع ما يخص المشبه به، وهو اسم جنسه، مع سد طريق التشبيه بإفراده في الذكر، أو كما تقول إن المنية أنشبت أظفارها، وأنت تريد بالمنية السبع بادعاء السبعية لها، وإنكار أن تكون شيئا غير سبع، فتثبت لها ما يخص المشبه به وهو الأظفار.."[1].

موازنة بين تعريف الاستعارة عندهما

ظهر من تعريف (ابن أبي الإصبع) أنه ألم بمضمون التصريحية، والمكنية عندما أخذ كلام (الفخر الرازي) الذي أخذه بدوره عن (الشيخ عبد القاهر الجرجاني) وهو قوله (الاستعارة عبارة عن جعل الشيء الشيء، أو جعل الشيء للشيء للمبالغة في التشبيه...).

ويشير بجعل الشيء الشيء للتصريحية، وبجعل الشيء للشيء للمكنية، وإن كان لم يصرح بمصطلح كل منهما، وذلك – فيما يظهر – اكتفاء بالإيماء، والإشارة إليهما، والتعريف الذي آثره، وأتي به من عند نفسه، مفضلا له على التعريفات التي ذكرها كلها، وهو قوله (الاستعارة تسمية المرجوح الخفي باسم الراجح الجلي) دون تعريف (السكاكي) الذي أوردته آنفاً، فإنه قد اتسم بالدقة، والوضوح، والتحرير، والتحديد، وإن كان المنهل الذي صدرا عنه معا هو مضمون كلام (الفخر الرازي).

وقد لاحظت أن (ابن أبي الإصبع) قد صرح باسم (الرماني) ونقد تعريفه -كما تقدم – وكذلك صرح باسم(الفخر الرازي) وعرض تعريفه للاستعارة أيضا،

---

(١) المفتاح ص ١٧٤ .

ولم يرقه، أما (السكاكي) فلم يصرح بأسماء البلاغيين السابقين، وكان يشير إليهم بكلمة (الأصحاب) ولم يذكر - حسب علمي - في باب الاستعارة منهم إلا (الشيخ عبد القاهر) ذكره مرة واحدة عند الحديث عن كون الاستعارة مجازا لغويا أو عقليا[١].

ولا أدرى السبب في ذلك.

أركان الاستعارة عند السكاكي

أشار (السكاكي) إلى أركان الاستعارة عقب الفراغ من تعريفها، وذكر أنها ثلاثة: مستعار منه، ومستعار له، ومستعار، عندما قال: "...وههنا سؤال وجواب تسمعهما في فصل الاستعارة بالكناية، ويسمى المشبه به سواء كان هو المذكور، أو المتروك مستعاراً منه واسمه مستعاراً والمشبه مستعاراً له[٢] وقد تجلت هذه الأركان أثناء تعريفه لها، وهو يذكر الرجل الشجاع المستعار له، والأسد ذاته بهيكله، وجسمه المعلوم، ولفظ (أسد) الذي يستعار من صاحبه، للرجل الشجاع، ويناظر الثوب الذي يستعار من مالكه، لمستعيره.

ويؤيد هذا ما ذكره (السعد) عند تعريف الاستعارة المكنية من أن المستعار لفظ السبع الغير مصرح به، والمستعار منه الحيوان المفترس، والمستعار له هو المنية [٣] ولا يخفى أن الذي يصنع الاستعارة هو المتكلم، ويعتبر عمادها، وأساسها، ولكنهم أغفلوه لأنه معروف عرفا - كما يقولون - ومما هو ظاهر لا يحتاج إلى بيان أن هذه الأركان هي باعتبار المعنى المصدري للاستعارة، ولا يتأتي ذلك باعتبار اللفظ المستعار.

---

(١) المفتاح ص ١٧٥ . (٢) المفتاح ص١٧٤ (٣) تحرير التحبير ص ٩٨ .

أركان الاستعارة عند ابن أبى الإصبع

وقد أشار إلى هذه الأركان الثلاثة (ابن أبى الإصبع) في كتابيه، فقال في أحدهما: "ولابد في الاستعارة من اعتبار ثلاثة أشياء أصول مستعار، ومستعار منه، ومستعار له" (١). ولا شك أنه يقصد من المستعار اللفظ، كما ينبئ سياق الكلام، وأومأ في الثاني إلى هذه الأركان أنفسها عند إجراء بعض الاستعارات(٢).

أنواع الاستعارة باعتبار الطرفين والجامع: (عند السكاكي)

جعلها (السكاكي) بهذا الاعتبار خمسة أنواع:

أحدها: استعارة محسوس لمحسوس والجامع حسي، ومثّل لها بقول الله تعالى: ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [مريم: ٤] وقال: "فالمستعار منه هو النار، والمستعار له هو الشيب، والجامع بينهما هو الانبساط، ولكنه في النار أقوى، فالطرفان حسيان، ووجه الشبه حسي"(٣).

والذي يبدو من منطوق الآية أن المستعار منه هو اشتعال النار، والمستعار له انتشار الشيب في الرأس، ولذلك أخرج الخطيب القزويني الآية من هذا النوع، لأن فيها تشبيهين "تشبيه الشيب بشواظ من النار في بياضه وإنارته، وتشبيه انتشاره في الشعر باشتعالها في سرعة الانبساط، مع تعذر تلافيه، والأول استعارة بالكناية والجامع في الثاني عقلي"(٤).

ثانيها: استعارة محسوس لمحسوس والجامع عقلي، وقد مثّل لها بقول الله تعالى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ [الذاريات: ٤١] وقال: "فالمستعار له الريح،

---

(١) تحرير التحبير ص ٩٨.
(٢) بديع القرآن ص٢٤.
(٣) المفتاح ص ١٨٣.
(٤) الإيضاح ص١٣١ (مع البغية).

والمستعار منه المرأة، والجامع المنع من ظهور النتيجة، فالطرفان حسيان ووجه الشبه عقلي"(١).

وهذا التمثيل– فيما يبدو – ليس دقيقا، لأنه جعل المستعار له الريح والشأن أن المستعار له محذوف والذى يظهر من ألفاظ الآية أن الريح شبهت بالمرأة، وحذف المشبه به، ورمز إليه بشيء من لوازمه، فتكون الآية من قبيل الاستعارة المكنية.

وقد مثّل لهذا النوع أيضا بقول الله تعالى: ﴿ **وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ** ﴾ [يس:٣٧] ثم قال: "فالمستعار له ظهور النهار من ظلمة الليل، والمستعار منه ظهور المسلوخ من جلدته، فالطرفان حسيان، والجامع هو ما يعقل من ترتب أحدهما على الآخر"(٢).

وقد عقب الخطيب القزويني على جعل المستعار له ظهور النهار من ظلمة الليل بقوله: "وليس بسديد، لأنه لو كان ذلك لقال: فإذا هم مبصرون، ولم يقل: ﴿ **فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ** ﴾ أي داخلون في الظلام"(٣).

ولذلك جعل الخطيب المستعار منه كشط الجلد عن الشاة وغيرها والمستعار له إزالة ضوء النهار عن مكان الليل وهما حسيان، والجامع ما يعقل من ترتب أحدهما على الآخر(٤).

ثالثها: استعارة معقول لمعقول والجامع عقلي وقد مثّل لهذا النوع بقول الله تعالى ﴿ **مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا** ﴾ [يس:٥٢] ثم قال: "فالرقاد مستعار للموت، وهما أمران معقولان، والجامع عدم ظهور الأفعال"(٥).

---

(١) المفتاح ص١٨٣، ١٨٤.
(٢) المفتاح ص ١٨٤.
(٣) الإيضاح ص١٣٢ (مع البغية)
(٤) نفسه
(٥) نفسه.

رابعها: استعارة محسوس لمعقول، ومثل لها بقول الله تعالى: ﴿**بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ**﴾ [الأنبياء:١٨] ثم قال: " فأصل استعمال القذف والدمغ في الأجسام، ثم استعير القذف لإيراد الحق على الباطل، والدمغ لإذهاب الباطل، فالمستعار منه حسى، والمستعار له عقلى" (١).

ويلحظ أنه لم يذكر الجامع، والظاهر أنه عقلي كما ذكر الخطيب القزويني في نظائره(٢) وهو في الآية الإبطال، أو الإذهاب، أو كما قال العلوي والجامع هو الإعدام والإذهاب(٣).

ويبدو – والله أعلم – أن (السكاكي) تأثر في هذه الاستعارة، بـ (الشريف الرضي) وإن كان الشريف قد زاد عليه، وذكر ما يعد ترشيحا للاستعارة، وذلك فى قوله بعد أن أورد الآية: وهذه استعارة لأن حقيقة القذف من صفات الأشياء الثقيلة التي يرجم بها كالحجارة، وغيرها، فجعل– سبحانه وتعالى – إيراد الحق على الباطل بمنزلة الحجر الثقيل الذي يرض ما صكه، ويدمغ ما مسه، ولما بدأ تعالى بذكر قذف الحق على الباطل، وفّى الاستعارة حقها، وأعطاها واجبها فقال سبحانه ﴿ **فَيَدْمَغُهُ**﴾ ولم يقل فيذهبه، ويبطله، لأن الدمغ إنما يكون عن وقوع الأشياء الثقال، وعلى طريق الغلبة، والاستعلاء، فكأن الحق أصاب دماغ الباطل، فأهلكه والدماغ مقتل، ولذلك قال سبحانه – من بعد ﴿**فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ**﴾ والزاهق الهالك"(٤).

واضح أنه يقول إن الاستعارة في قوله ﴿**بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ**﴾ كملت واستوفت حقها، وقوله تعالى: ﴿**فَيَدْمَغُهُ**﴾ ترشيح للاستعارة ملائم للقذف.

---

(١) المفتاح ص ١٨٤
(٢) الإيضاح ص١٣٤ (مع البغية)
(٣) الطراز ١ / ٢٤٥ .
(٤) تلخيص البيان في مجازات القرآن ص٢٢٨ .

ومن الأمثلة التي مثَّل بها (السكاكي) لهذا النوع قوله تعالى ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [الحجر: ٩٤] ثم قال: "فالصدع وهو كسر الزجاجة ببذل الإمكان وهو أمر حسي مستعار لتبليغ الرسالة ببذل الإمكان وأنه أمر عقلي"(١) ولكنه لم يذكر الجامع هنا أيضا ويبدو أنه التأثير، وهو عقلي-كما قال الخطيب(٢).

خامسها: استعارة معقول لمحسوس، وقد مثَّل لها بقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١] فالمستعار منه التكبر، وهو عقلي، والمستعار له كثرة الماء، والجامع الاستعلاء المفرط(٣).

أنواع الاستعارة باعتبار الطرفين والجامع (عند ابن أبى الإصبع)

وقد جعلها خمسة أنواع أيضا:

أحدها: استعارة محسوس لمحسوس، بسبب المشاركة فى أمر محسوس، وهى الاستعارة الكثيفة (٤) كما قال – وقد مثَّل لها بقول الله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ [الكهف: ٩٩] ثم قال: " فإن أصل الموج تحريك المياه، فاستعير لحركة يأجوج لاشتراك المستعار، والمستعار له فى الحركة" (٥) وهو موافق (للسكاكى) فى المضمون، وإن كان صاحب المفتاح قد مثَّل لها بآية أخرى – كما سبق –.

ثانيها: استعارة المحسوس للمحسوس للمشاركة فى أمر معقول، وهى الاستعارة المركبة من الكثيف واللطيف، وممّا مثَّل به قوله تعالى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ [الذاريات: ٤١] وقال عقب ذكر الآية " وهو عدم النتاج، والمشاركة بين

---

(١) المفتاح ص ١٨٤ . (٢) الإيضاح ص١٣٤ . (٣) المفتاح ص١٨٤ .
(٤) فهم من كلامه أنه يسمى المحسوس كثيفا، والمعقول لطيفاً.
(٥) بديع القرآن ص ٢١ .

المستعار له، والمستعار منه فى عدم النتاج، وهو شيء معقول" [١]. ويلحظ أنه لم يحدد المستعار له، والمستعار منه، على وجه الدقة كما فعل (السكاكى) الذى حدد أن المستعار له الريح، والمستعار منه المرأة، ولعله ترك ذلك لفهم القارئ. وقد ذكرت هناك أن ألفاظ الآية تنطق بأنها استعارة مكنية شبهت فيها الريح بالمرأة، ورمز لتلك المرأة بالعقم.

ثالثها: استعارة المحسوس للمعقول، ومثّل لها بقول الله تعالى: ﴿**بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ**﴾ [الأنبياء: ١٨] ثم قال "فالقذف والدمغ مستعاران، وهما محسوسان، والحق، والباطل، مستعار لهما، وهما معقولان" [٢].

فمؤدى كلامه، وكلام (السكاكى) حول هذه الاستعارة واحد، وقد أغفل كل منهما ذكر الجامع، وهو - فيما يبدو - الإبطال، أو الإزهاق - كما - ذكرت وقد ألمح إليه الزمخشرى، وهو يعالج تلك الاستعارة بأسلوبه الدقيق عندما قال: "ندحض الباطل بالحق، واستعار لذلك القذف، والدمغ، تصويراً لإبطاله، وإهداره، ومحقه، فجعله كأنه جرم صلب كالصخرة، مثلا - قذف به على جرم رخو أجوف فدمغه" [٣].

وقد مثّل لهذا النوع أيضا بقول الله تعالى: ﴿**فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ**﴾ مع اختلاف فى الأداء، والدقة فقال: "فالمستعار منه الزجاجة، والمستعار الصدع، وهو الشق، والمستعار له عقوق المكلفين، والمعنى صرّح بجميع ما أوحى إليك، وبين كل ما أمرت ببيانه، وإن شق ذلك على بعض القلوب، فانصدعت، والمشابهة بينهما فيما يؤثره التصديع فى القلوب، فيظهر أثر ذلك على ظاهرة الوجوه من التقبض، والانبساط،

---

(١) بديع القرآن ص ٢١. (٢) نفسه ص٢٢. (٣) الكشاف ٣/٦

ويلوح عليها من علامات الإنكار، والاستبشار كما يظهر ذلك على ظاهر الزجاجة المتصدعة المطروقة فى باطنها..."[1].

نقد وموازنـة:

يبدو من بادئ النظر أنه خالف ما قاله (السكاكى) فى الآية - كما سبق - وهو أن الصدع مستعار لتبليغ الرسالة. وقد جعله (ابن أبى الإصبع) عقوق المكلفين، وفيه بُعْدٌ، وتعسف- كما يقول البلاغيون، ومعلوم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جهر بالدعوة عقب نزول هذه الآية، وهذا الأمر أظهر من أن يستدل عليه، وكلامه نفسه صريح فى بيان المستعار له، وذلك فى قوله (والمعنى صرح بجميع ما أوحى إليك، وأيضا فيما قاله مخالفة لغير (السكاكى) من البلاغيين ومنهم على سبيل المثال الخطيب القروينى الذى قال فى هذه الاستعارة "فإن المستعار منه صدع الزجاجة، وهو كسرها، وهو حسّى والمستعار له تبليغ الرسالة..." [2].

رابعها: استعارة المعقول للمحسوس للاشتراك فى أمر معقول[3] وقد مثل له بقول الله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١].

ثم قال: "المستعار الطغى، وهو الاستعلاء المنكر، والمستعار منه كل مستعل متكبر، متجبر مضر، والمستعار له الماء والطغى معقول، والماء محسوس، والمستعار منه محسوس[4]. ويلاحظ أن عبارة (السكاكى) حول هذه الاستعارة فيها دقة، فقد ذكر أن المستعار منه التكبر، وهو المناسب لهذا القسم - أعنى استعارة المعقول للمحسوس، والمستعار له الماء، أو كثرة الماء، ولا اختلاف بينهما فيه، ولم يذكر (ابن أبى الإصبع) الجامع صراحة وهو الاستعلاء.

---

(١) بديع القرآن ص ٢٢.　　(٢) الإيضاح ص١٣٤ (مع البغية)

(٣) لم يصرح بهذا القسم وهو يعدد الأنواع لكنه مثّل له، وقد ذكره محقق الكتاب

(٤) بديع القرآن ص ٢٣.

خامسها : استعارة معقول لمعقول للاشتراك فى أمر معقول، وقد مثل لها بقوله تعالى : "﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ ﴾ [الأعراف: ١٥٤] وقال : فالمستعار السكوت، والمستعار له الغضب، والمستعار منه الساكت، والمعنى : ولما زال عن موسى الغضب... وحقيقة زوال الغضب عدم ما يدل عليه من الكلام، أو غيره ولما زال الكلام الدال على الغضب، حسنت استعارة السكوت للغضب، وهذه الاستعارة ألطف الاستعارات الخمس، لأنها استعارة معقول لمعقول للمشاركة فى أمر معقول(١).

ويبدو لى أن كلامه حول هذه الاستعارة غير مستقيم، لأن قوله فالمستعار السكوت يشعر أنه أجراها تبعية، وقوله والمستعار منه الساكت يدل على أنها مكنية، ثم إنه إذا كان المستعار منه الساكت، أى ذاته لم تكن استعارة معقول لمعقول.

رأى السكاكى فى هذه الاستعارة :

جعل السكاكى الاستعارة فى هذه الآية من استعارة المعقول للمعقول، فقال بعد أن أورد الآية الكريمة : فالمستعار منه هو إمساك اللسان عن الكلام، وأنه أمر معقول، والمستعار له تفاوت الغضب عن اشتداده إلى السكون، وأنه أيضا أمر وجدانى عقلى، والجامع هو أن الإنسان مع الغضب إذا اشتد، وجد حالة للغضب كأنها تغريه، وإذا سكن، وجده كأنه قد أمسك عن الإغراء" (٢).

ويفهم من كلام (السكاكى) أنه أجراها تبعية استعار السكوت، وهو ما عبر عنه بإمساك اللسان عن الكلام، والمستعار له السكون، وإن كان كلامه حول الجامع غامضا، وعلى وجه العموم فإن كلام السكاكى أقرب إلى الضبط، وقد غربل (الطيبى)

---

(١) بديع القرآن ص٢٣ .

(٢) المفتاح ص ١٨٤ .

حديثه وأسلوبه - كما يبدو لى - وقال فالمستعار منه إمساك اللسان عن الكلام، والمستعار له تفاوت الغضب عن اشتداده إلى السكون والجامع الإمساك عن الإغراء(١).

ترشيح الاستعارة وتجريدها

من المعلوم أن الاستعارة أصلها التشبيه، المستعار له هو المشبه، والمستعار منه هو المشبه به، وهى مبنية على تناسى التشبيه، وادعاء أن المشبه فرد من أفرد المشبه به، وداخل فى جنسه، فإذا ما صحب الاستعارة بعد تمامها أمر يلائم المشبه به، قويت، واشتد ساعدها، وتسمى حينئذ استعارة مرشحة، وإذا صحبها أمر يناسب المشبه، ضعفت، وتسمى مجردة، لأنها جردت عما يقويها، ويدعم بنيانها، وإن كانت خلوا من الأمرين، سميت مطلقة.

وقد تناول كل من (السكاكى) و (ابن أبى الإصبع) الترشيح، والتجريد مع اختلاف فى النهج، والعرض.

أولا: الترشيح والتجريد عند السكاكى

أبان كنه الترشيح، والتجريد، وأوضحهما من خلال بعض الأمثلة الكاشفة، وخص الترشيح بمزيد من الشواهد الشعرية، فقال وهو بصدد بيان كل منهما:

"اعلم أن الاستعارة فى نحو عندى أسد إذا لم تعقب بصفات، أو تفريع كلام، لا تكون مرشحة، ولا مجردة، وإنما يلحقها التجريد، أو الترشيح، إذا عقبت بذلك"(٢)، وقد أتبع هذا القول بضرب من الشرح والإيضاح فقال: "ثم إن الضابط هناك أصل واحد، وهو أنك قد عرفت أن الاستعارة لابد لها من مستعار له، ومستعار منه، فمتى عقبت بصفات ملائمة للمستعار له، أو تفريع كلام ملائم له سميت

---

(١) التبيان فى المعانى والبيان ١/٣١٣.

(٢) المفتاح ص ١٨٢.

مجردة، ومتى عقبت بصفات، أو تفريع كلام ملائم للمستعار منه، سميت مرشحة[١].

أمثلة موضحة كاشفة:

لم يترك (السكاكى) قارئه وسط قواعد محضة، وحقائق بحتة، بل وضح قواعده بالأمثلة المصنوعة، المبينة، الكاشفة، فذكر استعارات متشابهة فى الأصل، مختلفة فى الموائمات، المرشحة، أو المجردة، فقال إثر كلامه الذى تقدم: " مثالها فى التجريد أن تقول ساورت[٢] أسدا شاكى السلاح، طويل القناة، صقيل العضب[٣]. وحاورت بحرا ما أكثر علومه، وما أجمعه للحقائق، وما أوقفه على الدقائق، ومثالها فى الترشيح أن تقول ساورت أسدا هصورا، عظيم اللبدتين، وافى البراثن، منكر الزئير، وحاورت بحرا زاخرا لا يزال تتلاطم أمواجه، ولا يغيض فيضه، ولا يدرك قعره"[٤].

واضح أن الصفات التى ساقها فى التجريد توافق المستعار له، الرجل الشجاع المدجج بالسلاح المصقول السيف إلخ. والتى ساقها فى الترشيح تناسب المستعار منه الأسد، الوافى المخالب، كثير الشعر الموجود على عاتقه ... إلخ.

وقد نبه بعد ذلك على أن المراد بالصفات، الملائمة فى الترشيح، أو التجريد هى الصفات المعنوية، لا النحوية عندما قال: " ولا أعنى بالصفات الصفات النحوية، بل الوصف المعنوى كيف كان" [٥].

---

(١) المفتاح ص ١٨٢.
(٢) فى لسان العرب: ساوره مساورة، وسواراً واثبه أو تناول رأسه (سور).
(٣) وفيه – الصقل الجلاء، وصقيل السيف مجلوه (صقل).
(٤) المفتاح ص ١٨٢.
(٥) نفسه.

وشواهد شعرية تؤازر الترشيح :

وقد اهتم بالترشيح؛ لاشتماله على المبالغة فى الاستعارة وتوكيد المعنى المروم منها، المنوط بها، فآثره بطرف من الشواهد الشعرية التى تظهر أنه مبنى على تناسى التشبيه، وصرف النظر عن ذكره، والالتفات إليه، بل وتناسى أمر الاستعارة نفسها، واعتبارها نسيا منسيا، كأنها لم تخطر على بال قائلها، يقول فى ذلك المعنى : " ومبنى الترشيح على تناسى التشبيه، وصرف النفس عن توهمه حتى لا تبالى أن تبنى على علو القدر، وسمو المنزلة بناءك على العلو المكانى، والسمو، كما فعل أبو تمام إذ قال :

ويصعد حتى يظن الجهول بأن له حاجة فى السماء (١)

وهذا البيت من قصيدة أبى تمام التى يمدح بها (خالد بن يزيد الشيبانى) ويذكر أباه يزيد، ومعناه أن الممدوح رفيع المنزلة، سامى القدر، يصعد فى مدارج الكمال، ويترقى فى سلم المجد، فالصعود - أعنى صعود الممدوح - صعود معنوى، استعير له الصعود الحسى، وما ذكر فى البيت بعد (يصعد) ترشيح يوائم المستعار منه، ويضفى على الاستعارة مزيداً من التوكيد والمبالغة؛ لأن الظن المذكور لا ينبنى إلا على رؤيته يصعد صعودا حقيقيا، وخص الجهول ليفيد أن ذلك الظن خطأ(٢) قال السعد "وفي لفظ الجهول زيادة مبالغة فى المدح لما فيه من الإشارة إلى أن هذا إنما يظنه الجهول، وأما العاقل فيعرف أنه لا حاجة له فى السماء، لاتصافه بسائر الكمالات"(٣).

ومن الشواهد التى أوردها مماثلة لقول أبى تمام الآنف الذكر قول ابن الرومى :

---

(١) المفتاح ص ١٨٢ .
(٢) ينظر شواهد الكشاف ص ٤ بتصرف
(٣) المختصر ٤ / ١٣٦ شروح التلخيص.

يا آل نوبخت لاعـــدمـــتكم ولا تبـــدلت بعـــدكم بدلا[1]

إن صح علم النجــوم كــان لكم حــقــا إذا مــاســواكم انتــحــلا

كم عـــالم فـــيكم وليس بأن قـــاس ولكن بان رقى فـــعـــلا

أعــلاكم في الســمــاء مجــدكم فلســتم تجــهلون مــا جــهــلا

شــافهــتم البــدر بالسؤال عن ال أمـــر إلى أن بلغـــتم زحـــلاً

والشاهد الذى يتوخاه (السكاكى) فى "قوله (رقى . . .) فى البيت الثالث وما بعده من قوله (أعلاكم) إلخ.

فقد استعار فيه العلو الحسى– والارتقاء – للارتفاع فى المجد، ثم تناسى التشبيه وبنى عليه أنهم أخذوا علم النجوم عن الكواكب بالمشافهة[2].

وذكر من هذه الشواهد أيضا التعجب كما فى قول ابن العميد :

قامت تظللنى ومن عجب شمس تظللنى من الشمس[3]

يقول إن الغلام الذى يظلله من الشمس مشرق فالتعجب فى البيت من كونه أثبت وصفا يمتنع ثبوته للشمس الحقيقية، لأنها لا تظلل، ولا تمسك المظلة، فهو يتعجب من أن الذى يظلله شمس حقيقية، لأن الغلام لا يتعجب من تظليله، فذلك يتأتى منه حقيقة، وهذا ترشيح، ومبالغة يخيل للقارئ، أو المتلقى أن الذى يظلله الشمس الحقيقية.

---

(١) آل نوبخت لهم شهرة بالفلك والنجوم، وكان جدهم منجما للمنصور، وقوله (قاس)، أى أخذ علم النجوم بالقياس. الإيضاح وبغيه الإيضاح ص ١٤٣ .
(٢) بغية الايضاح الموضع نفسه.
(٣) المفتاح ص١٨٢ .

وأورد أيضا فى هذا الصدد النهى عن التعجب كما فى قول ابن طباطبا.

لا تعجبوا من بلى غلالته قد زر أزراره على القمر [١]

الغلالة القميص الذى يلبس فوق الجسم مباشرة، والبلى الفساد أى صارت هذه الغلالة رثة بالية، والعرب تقول إن نور القمر يبلى الثياب التى نسجت من الكتان، فالمستعار منه القمر، والمستعار له محبوبته. وقد تناسى التشبيه، والاستعارة، وجعلها قمراً حقيقيًّا، لأن غلالتها قد بليت، وينهى عن التعجب من ذلك البلى، لأن التى تلبس الغلالة قمر حقيقى فلا عجب، ولا ينافى الاستعارة ذكر المشبه، وهو الضمير فى (أزراره) لأنه ذكر على وجه لا ينبئ عن التشبيه، كأن يكون المشبه به خبرا عن المشبه[٢]. ثم بين (السكاكى) فى ختام حديثه عن الترشيح وتناسى التشبيه، أن هذا ليس بدعا، لأن الشعراء يبالغون حتى مع وجود المشبه، ويذكرون ما يلائم المشبه به مبالغة فى التشبيه[٣] ودلل على ذلك ببعض الشواهد كما فى قول العباس ابن الأحنف.

هى الشمس مسكنها فى السماء فعز الفؤاد عزاء جميلا
فلن تستطيع إليها الصعود ولن تستطيع إليك النزولا

والضمير فى قوله (هى الشمس) عائد إلى محبوبته، والشمس مشبه به – كما هو ظاهر – فعلى الرغم من أن المشبه موجود إلا أن الشاعر تناساه، وغض الطرف عنه، وادعى أنه يتكلم عن شمس حقيقية تسكن فى السماء.

ملحوظتان حول الترشيح والتجريد عند السكاكى:

أود أن أسجل عقب الانتهاء من كلامه حول الترشيح، والتجريد ملحوظتين:

---

(١) المفتاح ص١٨٢. (٢) بغية الإيضاح ص١١٥. (٣) نفسه ص ١٤٥.

إحداهما : أن موضعهما يكون عقب الاستعارة، وقد تكرر ذلك فى حديثه عنهما عدة مرات، يقول : اعلم أن الاستعارة فى نحو عندى أسد إذا لم تعقب بصفات، أو تفريع كلام، لا تكون مجردة، ولا مرشحة، وإنما يلحقها التجريد، أو الترشيح إذا عقبت بذلك...... فمتى عقبت بصفات ملائمة للمستعار له، سميت مجردة، ومتى عقبت بصفات، أو تفريع كلام ملائم للمستعار منه، سميت مرشحة...[1].

الثانية : أنه لم يغلق الباب أمام الاستعارة المطلقة، وإن كان لم يمثل لها، أو يصرح بلفظها، لكن كلامه يومئ إليها، وذلك فى قوله : "..إذا لم تعقب بصفات، أو تفريع كلام، لا تكون مرشحة، ولا مجردة" [2].

ومعنى هذا أنها توجد دون أن تعقب بشيء منهما وحينئذ تكون مطلقة عن الترشيح، والتجريد، وهى مشهورة فى كتب البلاغيين، كما فى قول الله تعالى : ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ [الكهف : ٩٩] فالمستعار منه (يموج) والمستعار له الاضطراب والاختلاط، والقرينة إسناد الفعل إلى الضمير العائد إلى (بعضهم) وليس فى هذه الاستعارة ما يلائم المستعار منه، أو المستعار له، ولذلك سميت مطلقة، لإطلاقها عما يقويها، أو يضعفها [3].

ثانيا : ترشيح الاستعارة وتجريدها عند ابن أبى الإصبع

قسم الاستعارة إلى مرشحة، ومجردة فقط، واستشهد لكل منهما بشاهد قرآنى واحد – كما سيأتى – وقد ألمَّ بالمرشحة إلمامة سريعة فى كتابه (التحرير والتحبير)

---

(١) المفتاح ص ١٨٢ .
(٢) نفسه.
(٣) البلاغة التطبيقية ص ١٨٠، ١٨١ بتصرف.

عندما قال: وأجل الاستعارات الاستعارة المرشحة، كقوله تعالى ﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ**﴾ [البقرة : ١٦] فإن الاستعارة الأولى وهى لفظة الاشتراء رشحت الثانية وهى لفظتا الربح والتجارة" [١].

وجعل استعارة لفظة الاشتراء وهى كما لا يخفى مستعار منه للاختيار استعارة أولى وهى المرشحة للاستعارة الثانية وهى لفظتا الربح والتجارة وقد زاد الأمر تفصيلا فى (بديع القرآن) فصرح فيه بتقسيم الاستعارة إلى مرشحة، ومجردة، واستشهد للمرشحة بآية البقرة السابقة، وصرح بالمستعار منه، والمستعار له فى الآية، ذكر ذلك كله فى قوله: "... وإذا عرفت الاستعارة، فاعلم أنها على ضربين مرشحة، ومجردة، لأن المتكلم، إما أن يراعى جانب المستعار منه، أو المستعار له فقط، والأول هو الترشيح، والثانى هو التجريد، ومثال الأول قول الله تعالى ﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ**﴾.

فإن المستعار منه الذى هو الشراء هو المراعى هنا، وهو الذى رشح لفظى الربح، والتجارة للاستعارة لما بين الشراء والربح والتجارة من الملاءمة.." [٢].

فنراه قد بقى مصرا على أن استعارة الاشتراء فى الآية وهى المتقدمة مرشحة للتجارة والربح، وهى المتأخرة، وهذا خلاف المعهود عند البلاغيين.

موازنة بين الترشيح عندهما:

رأينا - فيما سبق- أن (السكاكى) يجعل الترشيح تاليا للاستعارة، ومذكورا عقبها، وكرر ذلك مرارا بينما نجد (ابن أبى الإصبع) يجعله متقدما عليها - وإن كان (السكاكى) لم يتطرق إلى الآية الكريمة - فإذا ما احتكمنا إلى كلام الزمخشرى فى

---

(١) التحرير والتحبير ص ٩٩ .

(٢) بديع القرآن ص ١٩ .

الآية نفسها، نجد أنه يرى أن الترشيح، متأخر عن الاستعارة، ولاحق بها، يقول فى هذا الصدد: " ..... فإن قلت هب أن شراء الضلالة بالهدى وقع مجازا فى معنى الاستبدال، فما معنى ذكر الربح، والتجارة كأن ثَمَّ مبايعة على الحقيقة، قلت هذا من الصنعة البديعة التى تبلغ بالمجاز الذروة العليا، وهو أن تساق كلمة مساق المجاز ثم تقفى بأشكال لها وأخوات، إذا تلاحقن لم تر كلاما أحسن منه ديباجة، وأكثر ماء، ورونقا، وهو المجاز المرشح..."(١) فالترشيح – كما أبان صاحب الكشاف – يقفو الاستعارة ويأتى فى عقبها، وهو فى ذلك يعضد كلام (السكاكى) ويؤازره، وقد أكد الزمخشرى قوله بمعادلة المجاز فى الآية لقول الشاعر.

ولما رأيت النسر عز ابن دأية وعشش فى وكريه جاشت له نفسى

ثم قال: "لما شبه الشيب بالنسر، والشعر الفاحم بالغراب أتبعه ذكر التعشيش والوكر" (٢). فبين أن الترشيح جاء تلو الاستعارة، وموجودا بعدها، وتلك مسألة تحتاج إلى مزيد من البحث والتدقيق ليس هذا موضعه.

تجريد الاستعارة عندهما:

مثل (السكاكى) للاستعارة المجردة بأمثلة مصنوعة، منها – كما سبق، قوله: (ساورت أسدا شاكى السلاح طويل القناة صقيل العضب) فالصفات التى جاءت عقب (أسداً) ملائمة للمستعار له، فهى تجريد للاستعارة، ومثّل لها (ابن أبى الإصبع) بآية كريمة عندما قال " .... ومثال المجردة قوله تعالى ﴿ **فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ** ﴾ [النحل: ١١٢] فإن هذه الآية لو نظر فيها إلى المستعار، وهو اللباس لقيل فكساها الله لباس، ولكنه نظر إلى المستعار له، وهم المفعول بهم ذلك،

---

(١) الكشاف ١ / ٣٧ .

(٢) نفسه.

وعلى ظاهر هذا النظم إشكال قد أجبت عنه بعد تقريره[١]. وأبادر فأقول إننى لم أعثر على هذا الإشكال، ولا الإجابة عنه - حسب جهدى - فى كتابيه.

توضيح التجريد فى الآية:

الاستعارة فى الآية مجردة؛ لأنها لو كانت مرشحة لقيل فكساها، لأن الكسوة تلائم اللباس المستعار منه، والمستعار له أثر الجوع والخوف، وضررهما المحيط بالجسم عقلى، أو حسى، إن كانت الهموم والأحزان فهو عقلى، وإن كان شحوب اللون، وانتقاعه، فهو حسى، وقد قرنت هذه الاستعارة بالإذاقة التى تكون عادة باللسان وهى من ملائمات المستعار له، واشتهرت الإذاقة بمعنى الإصابة، فيكون معناها، فأصابهم الله بلباس الجوع والخوف، وآثر التجريد مع أن الترشيح أبلغ؛ لأن الإدراك بالذوق يستلزم الإدراك باللمس من غير عكس، ففى التعبير بالإذاقة إشعار بشدة الإصابة. والسر البلاغى فى مجيئها مجردة - والله أعلم - أن الغرض من الآية الدلالة على أمرين أولهما شدة الإصابة والثانى شمولها وعمومها، وجعلها مرشحة لا يحقق الدلالة على كل من الأمرين، فلو قيل كساها لباس الجوع ليكون ترشيحا، لأفاد الشمول، ولم يفد الشدة، لأن الكساء يلامس الجسد، فالإحساس به من طريق اللمس، وهو أضعف من الإحساس بطريق الذوق، ولو قيل فأذاقها طعم الجوع ليكون ترشيحا أيضا، لأفاد الشدة، ولم يفد الشمول الذى يدل عليه اللباس، فكان نظم الآية محققا للغرض المقصود[٢].

* * *

---

(١) صوبت بعض كلمات فى الجملة الأخيرة.

(٢) الإفصاح ص ١٨٨ للدكتور أحمد محمد الحجار (بتصرف).

الفصل الثانى

(المباحث التى انفرد بها السكاكى)

- الاستعارة بين المجاز اللغوى والعقلى.
- الاستعارة لا تدخل الأعلام الشخصية.
- الاستعارة التصريحية التحقيقية.
- الاستعارة التصريحية المتخيلة.
- الاستعارة التصريحية المحتملة للتحقيق والتخييل.
- الاستعارة بالكناية.
- سلك المجاز العقلى فى الاستعارة بالكناية.
- الاستعارة التبعية.
- رد التبعية إلى المكنية.

الاستعارة بين المجاز اللغوى والعقلى
(عند السكاكى)

من المسائل التى تناولها البلاغيون بينهم بالأخذ، والرد، كون الاستعارة مجازاً لغويًّا، نقل فيه الاسم من معناه الوضعى، إلى معنى آخر، أو هى مجاز عقلى بمعنى أن التصرف فيها أمر عقلى، مبنى على ادعاء دخول المشبه فى جنس المشبه به، وقد استوعب (السكاكى) كلام السابقين، وذكر أن لهم فى ذلك قولين **أحدهما**: أنها مجاز لغوى، **والثانى**: أنها مجاز عقلى، وانتصر من بداية حديثه للقول بأنها مجاز لغوى، وسانده بالأدلة القوية، وكذلك عرض للرأى الآخر، وأدلته، وأشار إلى أن الشيخ عبد القاهر الجرجانى تردد بين الرأيين، ووفق (السكاكى) بينهما على طريقة التأويل بجعل المستعار منه قسمين متعارف وهو المعنى الوضعى للمستعار منه، وغير متعارف، وهو المعنى الذى نقل إليه ذلك اللفظ.

انتصاره للقول بأنها مجاز لغوى:

بعد أن عرف الاستعارة صرح (السكاكى) بأن عدها مجازاً لغويًّا هو المتصور "... نظراً إلى استعمال الأسد فى غير ما هو له عند التحقيق، فإنا وإن ادعينا للشجاع الأسدية، فلا نتجاوز حديث الشجاعة حتى ندعى للرجل صورة الأسد، وهيئته، وعبالة [1] عنقه، ومخالبه، وأنيابه، وما له من سائر ذلك من الصفات البادية لحواس

(١) عباله عنقه أى ضخامته (المعجم الوجيز) (عبل)

الأبصار، ولئن كانت الشجاعة من أخص أوصاف الأسد، وأمكنها، لكن اللغة لم تضع الاسم لها وحدها، بل لها فى مثل تلك الجثة، وتلك الصورة، والهيئة، وهاتيك الأنياب، والمخالب إلى غير ذلك من الصور الخاصة فى جوارحه جمع..."[1] وبعد هذا الإطناب فى بيان أن المراد بالأسد المستعار منه للرجل الشجاع هو الحيوان المفترس الذى تبرز فيه صفة الشجاعة، عضد ذلك بعدة أدلة قائلاً: "ولو كانت - يقصد اللغة - وضعته لتلك الشجاعة التى نعرفها، لكان صفة، لا اسما، ولكان استعماله فيما كان على غاية قوة البطش، ونهاية جراءة المقدم، من جهة التحقيق، لا من جهة التشبيه، ولما ضرب بعرق فى الاستعارة إذ ذاك البتة، ولا نقلب المطلوب بنصب القرائن، وهو منع الكلمة عن حملها على ما هى موضوعة له، إلى إيجاب حملها على ما هى موضوعة له.."[2].

القول بأن الاستعارة مجاز عقلى:

ثم عرض (السكاكى) القول الثانى، ومضمونه أنها مجاز عقلى بناء على دعوى أن المشبه من جنس المشبه به، وفرد من أفراده، فلا يكون اللفظ مستعملاً فى غير ما وضع له، بل مستعمل فيما وضع له، فادعاء الأسدية للرجل الشجاع يجعله فردا من أفراد الأسد حقيقة؛ ولذلك صح التعجب فى قول ابن العميد:

قامت تظللنى من الشمس ... نفس أعز على من نفسى

قامت تظللنى ومن عجب ... شمس تظللنى من الشمس

فالتعجب من كون المظلل له شمسا حقيقية، ولو كان إنساناً ما صح التعجب.

ومن أجل ذلك أيضا صح النهى عن التعجب فى قول ابن طباطبا:

(١، ٢) المفتاح ص ١٧٥

لا تعجبوا من بلى غلالته قد زر أزراره على القمر

أى لا تعجبوا من بلى قميص الحبيب؛ لأن الذى يلبسه قمر حقيقى، والعرب تزعم أن نور القمر يبلى الكتان، ومحبوبته قمر حقيقى[١].

وقد ضعف (السكاكى) فى مطلع كلامه حول القول الأول – هذا الرأى، وذكر أن ادعاء الأسدية للرجل، لا يتعدى الشجاعة ولا يخرج الأسد عن كونه مستعملاً فى غير ما وضع له[٢] " وأما التعجب، والنهى عنه فيما ذكر فلبناء الاستعارة على تناسى التشبيه قضاء لحق المبالغة" [٣].

التوفيق بين الادعاء فى الاستعارة والقرينة المانعة :

وفق السكاكى بين إصرار المستعير على ادعاء الأسدية للرجل، ونصبه قرينة مانعة من إرادة الحيوان المفترس، بجعله أفراد جنس الأسد ضربين: متعارف، وهو السبع، وغير متعارف، وهو الرجل الشجاع فقال:

"اعلم أن وجه التوفيق هو أن تبنى دعوى الأسدية للرجل على ادعاء أن أفراد جنس الأسد قسمان بطريق التأويل: متعارف وهو الذى له غاية جرأة المقدم، ونهاية قوة البطش مع الصورة المخصوصة، وغير متعارف وهو الذى له تلك الجراءة، وتلك القوة، لا مع تلك الصورة، بل مع صورة أخرى" [٤].

وقد بين بعد قليل أن القرينة تنفى المتعارف أى السبع الذى يسبق إلى الفهم، وتعين المراد الذى استعير له الأسد – أعنى الرجل الشجاع [٥].

---

(١) المفتاح ص١٧٥ (بتصرف).
(٢) نفسه ص ١٧٥ .
(٣) الإيضاح ص١١٦ (مع البغية).
(٤) المفتاح ص ١٧٦ .
(٥) نفسه (بتصرف).

وقد استشهد (السكاكى) للضربين: المتعارف،وغير المتعارف بعدة شواهد منها قول المتنبى :

نحن قوم ملجن فى زى ناس   فوق طير لها شخوص الجمال

فقد استعار الطير للجمال، بجعل الطير نوعين متعارف وهو الحقيقى وغير متعارف، وهو الجمال [١].

الاستعارة تفارق الكذب :

بين (السكاكى) أن الاستعارة تفارق الكذب لبنائها على التأويل، ووجود القرينة المانعة من إجراء الكلام على ظاهره وذلك فى قوله: "والاستعارة لبناء الدعوى فيها على التأويل تفارق الدعوى الباطلة، فإن صاحبها يتبرأ عن التأويل وتفارق الكذب بنصب القرينة المانعة عن إجراء الكلام على ظاهره، فإن الكذاب لا ينصب دليلاً على خلاف زعمه، وأنى ينصب، وهو لترويج ما يقول راكب كل صعب، وذلول "[٢].

كلام السكاكى فى ترجيح كونها مجازاً لغويًّا مسبوق به :

هذا الترجيح، والانتصار لكون الاستعارة مجازاً لغويا، الذى أبانه (السكاكى) وبذل فيه جهداً ليس من أولياته بل هو مسبوق إليه، أخذه عن الإمام (فخر الدين الرازى) الذى اختصره، وحصله من كلام الشيخ (عبد القاهر الجرجانى) فى كتابيه (أسرار البلاغة) و(دلائل الإعجاز)، وصرح بأن الشيخ نصر فى الأسرار كونها مجازاً لغويًّا، ونصر فى الدلائل كونها تصرفاً عقليا، يقول الإمام الرازى: "... اضطرب رأى الشيخ فى أن هذا المجاز عقلى، أم لغوى، والذى نصره فى (الأسرار) أنه لغوى؛ لأنَّا

---

(١) الإيضاح ص ١١٧ (مع البغية).   (٢) المفتاح ص ١٧٦ .

وإن أجرينا اسم الأسد على الرجل المشبه بالأسد بطريق التأويل، لكنا على الحقيقة استعملناه فى غير موضعه الأول؛ لأنَّا إذا أجرينا على الرجل اسم الأسد لم نتجاوز فيه أمر الشجاعة، فلا ندعى للرجل صورة الأسد، وهيئته، واسم الأسد موضوع لا للشجاعة وحدها، وإلا لكان اسم صفة، لا اسم جنس، بل هو موضوع للبنية المخصوصة، فإذا أجرينا اسم الأسد على الرجل، تبعا لثبوت صفة الشجاعة فيه، فقد سلبنا الصيغة بعض ما هى مستحقة له فى أصل الوضع، وهو بنية الأسد، وهيكله، فيكون هذا إزالة له عما وضع فى الأصل بإزائه"(١).

وبعد أن ذكر كلامه فى الدلائل الذى يتضمن كونها تصرفاً عقليا قال الإمام الرازى: "والأقرب هو الأول – أى كونها مجازا لغويا – أما أولا، فلأنه فى الدلائل سلم أن الاستعارة داخلة تحت المجاز، وسلم أن المجاز يستدعى النقل فيلزمه قطعاً اعتبار النقل فى الاستعارة، وأما ثانيا، فلما بينا أن صيغة الأسد لا تفيد الشجاعة فقط، وإلا لم يكن اسم جنس، بل الشجاعة مع البنية والهيئة، وإذا جعلته مستعاراً فلم تفد به البنية. واستدل فى الأسرار على أنه ليس المقصود من الاستعارة إثبات معنى اللفظ للمستعار له بأن قال إن هذا كذب، وهو على الله محال والاستعارات كثيرة فى القرآن، فدل على أنه لابد له من النقل ..." (٢).

الاستعارة لا تدخل الأعلام الشخصية

من الأمور التى تطرق إليها (السكاكى) عدم دخول الاستعارة فى العلم الشخصى، لأنه يدل على فرد معين، والاستعارة مبنية على ادعاء دخول المشبه فى المشبه به، أو بعبارة أدق، دخول المستعار له فى جنس المستعار منه، ولذلك ارتضى

(١) نهاية الإيجاز ص ٨٤ .
(٢) نفسه ص٨٥ .

البلاغيون أن تكون الاستعارة في أسماء الأجناس، كالأسد، والسيف، والبحر، ونحو ذلك؛ لأنها تدل على أفراد كثيرين، فيتأتى فيها ادعاء دخول المستعار له في جنس المستعار منه، أما علم الشخص، فإنه يدل على واحد، فلا يتأتى فيه ادعاء إدخال المستعار له في المستعار منه يقول السكاكي: "والذي قرع سمعك من أن الاستعارة تعتمد إدخال المستعار له في جنس المستعار منه، هو السر في امتناع دخول الاستعارة في الأعلام، اللهم إلا إذا تضمنت نوع وصفية لسبب خارجي تضمن اسم (حاتم) الجود، ومادر البخل، وما جرى مجراها" (١). وقد استثنى في عجز كلامه الآنف الذكر الأعلام التي اشتهرت بوصف مثل (حاتم الطائي) فإنه علم شخصي، لكنه اشتهر بالكرم شهرة فائقة، وذاع صيته بين الناس؛ لذلك تتأتى فيه الاستعارة، فيقال – مثلاً: رأيت اليوم حاتما يوزع الجوائز على المتفوقين في كلية اللغة العربية، فاستعير حاتم لفلان؛ لأنه صار مرادفاً للجود، ومثل ذلك (مادر) (٢) المشتهر بالبخل، وما جرى مجراهما.

الاستعارة التصريحية عند السكاكي

من المعلوم أن الاستعارة التصريحية، هي ما صرح فيها بالمشبه به، أصلية كانت أو تبعية، أو تمثيلية، وقد قسمها (السكاكي) إلى تحقيقية على سبيل القطع، وتحقيقية محتملة للتحقيق، والتخييل، وتخييلية على سبيل القطع.

أولا: التصريحية مع التحقيق

وقد أفاض في بيان مضمونها، وبين أن الذي يفرد فيها بالذكر هو المستعار منه

---

(١) المفتاح ص ١٧٤، ١٧٥.

(٢) (مادر) رجل ضرب به المثل في البخل؛ لأنه سقى إبله من بعض حياض العرب، فلما شربت، وصدرت عن الماء سلح في الحوض، ولطخه حتى لا يشرب غيره، ولذلك قيل أبخل من مادر. ينظر جواهر الأدب – للهاشمي ص ٥٧١.

الذى تتجلى فيه الصفة المشتركة بينه، وبين المستعار له، المتروك، فيلحق الأضعف بالأقوى في الصفة، مع نصب قرينة مانعة من إرادة المعنى الوضعى للمستعار منه فقد قال: " الاستعارة المصرح بها مع القطع، هى إذا وجدت وصفا مشتركا بين ملزومين مختلفين في الحقيقة، هو في أحدهما أقوى منه فى الآخر. وأنت تريد إلحاق الأضعف بالأقوى على وجه التسوية بينهما، أن تدعى ملزوم الأضعف من جنس ملزوم الأقوى، بإطلاق اسمه عليه، وسد طريق التشبيه بإفراده في الذكر، توصلا بذلك إلى المطلوب، لوجوب تساوى اللوازم عند تساوى ملزوماتها، فاعلا ذلك في ضمن قرينة مانعة عن حمل المفرد بالذكر على ما يسبق منه إلى الفهم كيلا يحمل عليه فيبطل الغرض التشبيهى بانيا دعواك على التأويل المذكور ليمكن التوفيق بين دلالة الإفراد بالذكر، وبين دلالة القرينة المتمانعين..."(١) .

وقد أتبع هذه المصطلحات المتتالية بطرف من الأمثلة الموضحة، أماطت اللثام عنها، أورد منها نموذجا واحدا مخافة الملال، هو قوله: " مثال ذلك أن يكون عندك شجاع، وأنت تريد أن تلحق جراءته، وقوته بجراءة الأسد، وقوته، فتدعى الأسدية له بإطلاق اسمه عليه، مفردا له في الذكر، فتقول رأيت أسداً، كيلا يعد جراءته، وقوته، دون جراءة الأسد، وقوته مع نصب قرينة مانعة عن إرادة الهيكل المخصوص به، كيرمى، أو يتكلم أو في الحمام " (٢).

توضيح معنى التحقيقية:

لم يحدد (السكاكى) فيما مضى من حديثه تعريف الاستعارة التحقيقية، ويبدو أنه اكتفى بهذا البيان الفضفاض اتكالا على فهم القارئ، وقد بدا من المثال

(١، ٢) المفتاح ص ١٧٧

الذى ذكره، أن المستعار له، وهو الرجل الشجاع له تحقق ووجود محسوس، ولذلك حددها الخطيب القزوينى بقوله وهو بصدد تناول التصريحية :

" وقد تقيد بالتحقيقية، لتحقيق معناها حسًّا، أو عقلا ... أما الحسى، فقولك رأيت أسدا، وأنت تريد رجلا شجاعا.... وأما العقلى، فكقولك أبديت نورا، وأنت تريد حجة، فإن الحجة مما يدرك بالعقل من غير وساطة حس، إذ المفهوم من الألفاظ هو الذى ينور القلب، " ويكشف عن الحق، لا الألفاظ، أنفسها. وعليه قوله عز وجل ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة :٦] أى الدين الحق " (١) .

الاستعارة التهكمية من التحقيقية قطعا :

ذكر (السكاكى) أثناء حديثه عن التحقيقية على سبيل القطع أن الاستعارة التهكمية، والتمليحية ضرب منها، فقد قال وهو يسرد أمثلة التحقيقية : " ومن الأمثلة، استعارة أحد الضدين، أو النقيضين للآخر بواسطة انتزاع شبه التضاد، وإلحاقه بشبه التناسب بطريق التهكم، أو التمليح على ما سبق في باب التشبيه، ثم ادعاء أحدهما من جنس الآخر، والإفراد بالذكر، ونصب القرينة، كقولك إن فلانا تواترت علية البشارات بقتله، ونهب أمواله، وسبى أولاده، ويخص هذا النوع باسم الاستعارة التهكمية، أو التمليحية" (٢) .

مزيد من البيان للتهكمية والتمليحية :

مثل (السكاكى) في حديثه الذى سبق للتهكمية بقولنا - مثلا - إن فلانا تواترت عليه البشارات بقتله، ونهب أمواله إلخ.

ومعلوم أن البشارة هى إدخال السرور على المبشر بالأشياء السارة، فتكون

---

(١) الإيضاح من ١٠٤ - ١٠٦ (مع البقية). (٢) نفسه ص ١٠٦ .

البشارة، مستعارة للإنذار بتنزيل التضاد منزلة التناسب، بعد تشبيه الإنذار بالبشارة بجامع إدخال السرور في كل، وإن كان تنزيليًّا بالنسبة للمشبه واستعير اسم البشارة للإنذار بسبب إدخال الإنذار في جنس البشارة على طريق الاستعارة التهكمية، أو التمليحية، والفرق بين التهكمية، والتمليحية من جهه الغرض الحامل على استعمال اللفظ في ضده، فإن كان الغرض الهزء، والسخرية بالقول فيه كانت تهكمية، كما في استعارة البشارة للإنذار، وإن كان الغرض الدعابة وإزالة السآمة عن السامعين كانت تمليحية، للإتيان فيها بشيء مليح مستظرف، كاستعارة الأسد للجبان، أو البدر للدميم(١).

الاستعارة التمثيلية من التحقيقية أيضا :

وجعل (السكاكى) الاستعارة التمثيلية من التحقيقية على سبيل القطع، وذلك عندما عطف مثالها على أمثلة التحقيقية في قوله: " ومن الأمثلة استعارة وصف إحدى صورتين منتزعتين من أمور لوصف الأخرى، مثل أن تجد إنسانا استفتى في مسألة فيهمّ تارة بإطلاق اللسان ليجيب، ولا يهم أخرى، فتأخذ صورة تردده هذا فتشبهها بصورة تردد إنسان قام ليذهب في أمر، فتارة يريد الذهاب، فيقدم رجلا، وتارة لا يريد، فيؤخر أخرى، ثم تدخل صورة المشبه في جنس صورة المشبه به روما للمبالغة في التشبيه، فتكسوها وصف المشبه به من غير تغيير فيه بوجه من الوجوه على سبيل الاستعارة، فتقول أراك أيها المفتى تقدم رجلا وتؤخر أخرى..."(٢).

ثانيا : الاستعارة المصرح بها المتخيلة قطعا

وهى عنده ما كان المستعار له فيها شيئا وهميا محضا، لا تحقق له حسا،

---

(١) ينظر شروح التلخيص ٤/٧٨ .

(٢) المفتاح ص ١٧٧ ، ١٧٨ .

ولا عقلا، شبيه بالمستعار منه الموجود على سبيل القطع، مع وجود قرينة تمنع من إرادة المستعار منه، وهى إضافة المستعار منه المنطوق به الموجود، للمستعار له المتخيل، ومثَّلها بما جاء في قول أبى ذؤيب الهذلى.

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع

فإن المستعار له – المشبه – أظفار خيالية متوهمة، مثل الأظفار الموجودة في البيت، وهى استعارة تصريحية، لأن المشبه به مذكور يقول السكاكى في بيانه: " هى أن تسمى باسم صورة متحققة صورة عندك وهمية محضة، تقدرها مشابهة لها مفردا في الذكر في ضمن قرينة مانعة عن حمل الاسم على ما يسبق منه إلى الفهم من كون مسماه شيئا متحققا، وذلك مثل أن تشبه المنية بالسبع في اغتيال النفوس، وانتزاع أرواحها بالقهر، والغلبة من غير تفرقة بين نفاع، وضرار، ولا رقة لمرحوم، ومساس بقيا على ذى فضيلة تشبيها بليغا حتى كأنها سبع من السباع، فيأخذ الوهم في تصويرها في صورة السبع واختراع ما يلازم صورته، ويتم بها شكله، من ضروب هيئات وفنون جوارح، وأعضاء، وعلى الخصوص ما يكون قوام اغتيال السبع للنفوس بها، وتمام افتراسه للفرائس بها من الأنياب، والمخالب، ثم تطلق على مخترعات الوهم عندك أسامى المتحققة، على سبيل الإفراد بالذكر، وأن تضيفها إلى المنية قائلا مخالب المنية، أو أنياب المنية الشبيهة بالسبع، ليكون إضافتها إليها قرينة مانعة من إجرائها على ما يسبق إلى الفهم منها من تحقق مسمياتها[١] .

فإضافة الأظفار، أو الأنياب إلى المنية قرينة على أنها الصورة المتخيلة للمنية، الشبيهة بأظفار، أو أنياب السبع، ويضيف (السكاكى) أمثلة أخرى، موضحة لها

---

(١) المفتاح ص ١٧٨ .

قائلا: " ..... أو مثل أن تشبه الحال إذا وجدتها دالة على أمر من الأمور بالإنسان الذى يتكلم، فيعمل الوهم في الاختراع للحال ما قوام كلام المتكلم به وهو تصوير صورة اللسان، ثم تطلق عليه اسم اللسان المتحقق، وتضيفه إلى الحال قائلا لسان الحال الشبيه بالمتكلم ناطق بكذا، أو مثل أن تشبه حكما من الأحكام إذا صادفته واقعا بمشيئة امرئ وتابعا لرأيه كيف شاء بالناقة المنقادة التابعة لمستتبعها كيف أراد، فتثبت له في الوهم ما قوام ظهور انقياد الناقة به، واتباعها المستتبع وهو صورة الزمام، فتطلق عليها اسم الزمام المتحقق قائلا زمام الحكم الشبيه بالناقة في اتباع المستتبع في يد فلان" [١] وهذه الأمثلة التى ذكرها للاستعارة المتخيلة على سبيل القطع، قد استقلت فيها الاستعارة التخييلية عن المكنية، ووجدت دونها، وهو - أعنى (السكاكى) يرى أن التخييلية لا يجب أن تكون تابعة للمكنية، ولذلك صرح بالتشبيه في قوله أظفار المنية الشبيهة بالسبع إلخ. لتكون الاستعارة في الأظفار، أو ما شابهها فقط، من غير استعارة بالكناية[٢].

نقض قول السكاكى بالاستعارة التخييلية المحضة:

لم يلق ما ذهب إليه (السكاكى) قبولا لدى جمهور البلاغيين، وانبروا إلى إبطاله، ودحضه، لأن فيه - كما يقول الخطيب القزوينى [٣] تعسفا، وسيرا على غير هدى، وفيه أيضا مخالفة لما قال به غيره، مثل الشيخ (عبد القاهر) بأنها جعل الشيء للشيء، أى جعل الشيء الذى هو لازم المشبه به، للشيء الذى هو المشبه وعلى تفسير غيره، يكون لازم المشبه به مستعملا في حقيقته، والاستعارة إنما هى في إثباته للمشبه، ولذلك قال السعد: "وتحقيق معنى الاستعارة في التخييلية أنه استعير للمنية ما ليس لها، وهو الأظفار "[٤].

---

(١) المفتاح ص ١٧٨ .

(٢) المطول ص ٣٩٣، ٣٩٤ .

(٣) ينظر الإيضاح مع البغية ص ١٦١ .

(٤) المطول ص ٣٩٧ .

وقد وصف (العصام) هذا القول بأنه مخالف للعقل، والنقل عن البلاغيين عندما قال: " ... وبالجملة يريد – أى الخطيب – أن تفسيره – أى السكاكى – مع كونه تعسفا غير موثوق به عقلا، غير موثوق به نقلا، لأنه يخالف تفسير غيره في أنه يقتضى كون الأظفار [1] مستعملة في صورة وهمية، وتفسير غيره يقتضى كونها حقيقة على ما عرفت، ومخالفة القوم فيما الحق معهم بلا شبهة جسارة فيه خسارة"[2] .

ثالثا : الاستعارة التصريحية المحتملة للتحقيق والتخييل

بعد حديثه عن الاستعارة التحقيقية على سبيل القطع، والتخييلية أيضا، تحدث (السكاكى) عن المحتملة للتحقيق، والتخييل، واستشهد لها بما جاء في آية قرآنية كريمة، ثم بيت من شعر (زهير بن أبى سلمى) وبين أن البيت يمكن أن تكون فيه استعارة تخييلية – حسب رؤيته لها – تكون تابعة للمكنية، ويحتمل أيضا أن تكون تحقيقية، حسية، أو عقلية فقال: " الاستعارة المصرح بها المحتملة للتحقيق، والتخييل، هى .... أن يكون المشبه المتروك صالح الحمل على ما له تحقق من وجه، وعلى ما لا تحقق له من وجه آخر، ونظيره قول زهير:

صحا القلب عن سلمي وأقصر باطله وعرى أفراس الصبا ورواحله[3] .

أراد أن يبين أنه أمسك عما كان يرتكب أوان الصبا، وقمع النفس عن التلبس

---

(١) يقصد في قول أبى ذؤيب (وإذا المنية أنشبت أظفارها) .

(٢) الأطول ٢ / ١٦٠ .

(٣) صحا القلب – أى سلا حب سلمى وعشقها، استعار الشاعر الصحو من السكر لسلو الحب، فشبه السلو أى زوال العشق بالصحو، واستعار المشبه به للمشبه، ثم اشتق من الصحو صحا بمعنى سلا – ينظر شروح التلخيص ٤ /١٦٣ ، ١٦٤ .

بذاك، معرضا الإعراض الكلى عن المعاودة لسلوك سبيل الغى، وركوب مراكب الجهل، فقال (وعرى أفراس الصبا ورواحله) أى ما بقيت آلة من آلاتها المحتاج إليها في الركوب، والارتكاب قائمة ... (فحق قوله أفراس الصبا ورواحله) أن يعد استعارة تخييلية لما يسبق إلى الفهم، ويتبادر إلى الخاطر من تنزيل أفراس الصبا ورواحله منزلة أنياب المنية، ومخالبها .."[1] وهذه الاستعارة التى أبانها تخييلية تابعة لاستعارة مكنية، شبه فيها الصبا بجهة بعيدة بجامع ما بينهما من الجهد، والمشقة والاهتمام، وأثبت الأفراس، والرواحل، وهى من خصائص الجهة للصبا، وهذه الأفراس، والرواحل مستعارة لصورة متوهمة – كما يرى السكاكى – وحقيقة لغوية على رأى جمهور البلاغيين، والاستعارة في إثباتها للصبا، ولذلك قال الخطيب القزوينى، وهو يعالج هذه الاستعارة: " ... فشبه أى الشاعر – الصبا بجهة من جهات المسير كالحج والتجارة، قضى منها الوطر، فأهملت آلاتها، فتعطلت، فأثبت له الأفراس، والرواحل، فالصبا على هذا من الصبوة [2] بمعنى الميل إلى الجهل، والفتوة ... " [3].

والاحتمال الثانى في هذه الاستعارة أن تكون تحقيقية، وإن كان (السكاكى) يرى أنه متكلف، وفى هذا إيماء إلى أنه يرجح كفة التخييلية يقول في هذا الاحتمال عقب كلامه الذى سلف: " وإن كان يحتمل احتمالا بالتكلف أن نجعل الأفراس، والرواحل عبارة عن دواعى النفوس، وشهواتها، والقوى الحاصلة لها في إستيفاء اللذات، أو عن الأسباب التى قلما تتآخذ في إتباع الغى، وجر أذيال البطالة إلا أوان

---

(١) المفتاح ص ١٧٩ .

(٢) أى على هذا التفسير يكون الصبا من الصبوة والمراد الأفعال المرتكبة وقت الشباب، أما تفسير الصبا من الصباء المعهود، بمعنى اللعب مع الصبيان، فهو غير مناسب للمقام. ينظر شروح التلخيص ٤ / ١٦٤ .

(٣) الإيضاح ص١٥٧ (مع البغية) .

الصبا، وكذلك قوله – علت كلمته – ﴿فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ﴾ [النحل :١١٢] – الظاهر من اللباس عند أصحابنا الحمل على التخيل، وإن كان يحتمل عندى أن يحمل على التحقيق، وهو أن يستعار لما يلبسه الإنسان عند جوعه من انتقاع اللون[١] ورثاثة الهيئة " [٢].

فالاستعارة على هذا الاحتمال المذكور تحقيقية، فإن كان المعتبر فيها استعارة (الأفراس والرواحل) لدواعى النفوس، وشهواتها كانت تحقيقية عقلية، وإن كان المعتبر فيها استعارة الأفراس للأسباب من المال، والأعوان، والأخوال، كانت تحقيقية حسية[٣] وقد جعل (السكاكى) في كلامه المتقدم استعارة (اللباس) في قول الله تعالى .. ﴿فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾ مناظرة لاستعارة الأفراس، والرواحل في كونها تحتمل التحقيقية العقلية كما يرى الأصحاب، أو تحقيقية حسية عنده لأن اللباس مستعار في رأيه لما يلبسه الإنسان عند الجوع من الشحوب، وانتقاع اللون.

والقول بأن الاستعارة في (اللباس) تحقيقية حسية ليس من أوليات (السكاكى) التى لم يسبق إليها – كما يفيده قوله (وإن كان يحتمل عندى أن يحمل على التحقيق) وقد لاحظ ذلك العلامة (السعد) عندما عقب على هذا القول بأن فيه بحثا،" لأن كلام صاحب الكشاف مشعر بأنه استعارة تحقيقية، يحتمل أن تكون عقلية، وأن تكون حسية، لأنه قال شبه ما غشى الإنسان، والتبس به من بعض الحوادث باللباس، لاشتماله على اللابس، والحادث الذى غشيه يحتمل أن يريد به الضرر الحاصل من الجوع، فتكون عقلية، وأن يريد به انتقاع اللون، ورثاثة الهيئة، فتكون حسية كما ذكره السكاكى " [٤].

---

(١) انتقع لونه – تغير من هم أو حزن. لسان العرب (نقع)
(٢) المفتاح ص١٧٩ (٣) المطول ص ٣٨٦ . (٤) المطول ص ٣٥٨ .

الاستعارة بالكناية عند السكاكى

الاستعارة بالكناية عنده أن يذكر لفظ المشبه، ويراد المشبه به ادعاء – فمثلا – قول الشاعر (وإذا المنية أنشبت أظفارها . .) ذكرت المنية، وأريد بها السبع بادعاء السبعية لها، وإنكار أن تكون شيئا غيره، بقرينة إضافة الأظفار إليها، وإضافة ما هو من خواص المشبه به للمشبه استعارة تخييلية، وبناء على ذلك تكون الاستعارة بالكناية عنده لا تنفك عن التخييلية، يقول في بيان حدها " . . . الاستعارة بالكناية هى كما عرفت أن تذكر المشبه، وتريد به المشبه به دالا على ذلك بنصب قرينة تنصبها، وهى أن تنسب إليه، وتضيف شيئا من لوازم المشبه به المساوية، مثل أن تشبه المنية بالسبع، ثم تفردها بالذكر، مضيفاً على سبيل الاستعارة التخييلية من لوازم المشبه ما لا يكون إلا له، ليكون قرينة دالة على المراد، فتقول مخالب المنية نشبت بفلان طاويا لذكر المشبه به، وهو قولك الشبيه بالسبع . . . .

وقد ظهر أن الاستعارة بالكناية لا تنفك عن التخييلية . . ."[1] ولما وجد (السكاكى) أن ادعاء السبعية للمنية، وإنكار أن تكون شيئا غير السبع، مع نصب قرينة تمنع من إخراج المنية عن جنسها، لجأ إلى الادعاء، فجعل للسبع فردين، متعارف، وهو الحيوان المفترس، وغير متعارف، وهو المنية، فاستعير لفظ المنية من الموت الحقيقى للموت المدعى له السبعية، وقد حرر الدسوقى – رحمه الله – الاستعارة بالكناية على رأى (السكاكى) فقال : وتقرير الاستعارة بالكناية في المثال المذكور على مذهب (السكاكى) أن يقال شبهنا المنية التى هى الموت المجرد عن ادعاء السبعية بالسبع الحقيقى، وادعينا أنها فرد من أفراده، وأنها غير مغايرة له، وأن للسبع فردين،

---

(١) المفتاح ص ١٧٩

فرد متعارف، وفرد غير متعارف، وهو الموت الذى ادعيت له السبعية، واستعير اسم المشبه، وهو المنية، لذلك الفرد الغير متعارف أعنى الموت الذى ادعيت له السبعية. . . . " (١).

نقض رأى السكاكى في الاستعارة بالكناية :

هذا الرأى الذى أبداه السكاكى في الاستعارة بالكناية، وكد فيه ذهنه، لم يلق قبولا لدى البلاغيين، أسوة برأيه في الاستعارة التخييلية، فتصدوا لرفضه، والإتيان على بنيانه من القواعد، لأنه بنى على أسس واهية، ودعائم واهنة، فقد رفضه (الخطيب القزوينى) وفنده، فقال بعد أن استعرضه : (وفيه نظر، للقطع بأن المراد بالمنية في البيت الموت، لا الحيوان المفترس، فهو مستعمل فيما هو موضوع له على التحقيق (٢) وبين (الخطيب) كذلك أن التأويل الذى ارتكبه، لا يفيده، ولا يساند رأيه، لأن هذا التأويل لا يقتضى استعمال لفظ المنية في غير ما هو موضوع له على التحقيق) (٣).

وقد نقضه (السعد) أيضا بعد أن استعرضه بالتفصيل، وأكد أن لفظ المنية مستعمل في حقيقته، ولا يخرجه التأويل الذى أتى به (السكاكى) عما وضع له، يقول في هذا الصدد : " سلمنا جميع ذلك، لكنه لا يقتضى كون لفظ المنية مستعملا في غير ما وضع له على التحقيق من غير تأويل حتى يدخل في تعريف المجاز، ويخرج عن تعريف الحقيقة، فكما أنَّا إذا جعلنا مسمى الرجل الشجاع من جنس مسمى الأسد بالتأويل، لم يصر استعمال لفظ الأسد فيه بطريق الحقيقة، بل كان مجازا، فكذا

---

(١) حاشية الدسوقى على مختصر السعد ٤ / ٢٠٥ شروح التلخيص.
(٢) الإيضاح ص ١٦٤ (مع البغية)
(٣) نفسه (بتصرف)

إذا جعلنا اسم المنية مرادفا لاسم السبع بالتأويل، لم يصر استعماله في الموت بطريق المجاز، حتى يكون استعارة، بل هو حقيقة فليتأمل، وبالجملة إن كل أحد يعرف أن المراد بالمنية، ههنا هو الموت، وهذا اللفظ موضوع له على التحقيق، فلا يكون مجازا البتة..." (١).

وقد وسم (السيد الشريف) كلام السكاكى في هذه الاستعارة بأنه مختل، لأن قوله في تعريف الاستعارة ويسمى المشبه به سواء كان المذكور، أو المتروك مستعاراً منه، واسمه مستعارا، والمشبه مستعار له، والحق أن كلام السكاكى في هذه الاستعارة مختل، فإن تصريحه هذا يقتضى أن يكون المستعار في المكنية هو لفظ المشبه به، كما هو مذهب السلف، وتعريفه لها بما ذكره، وتمثيله إياها بأمثلة غير منحصرة يقتضى أن يكون المستعار الذى هو مجاز لغوى وهو ليس مجازا لغويا لأنه مستعمل فيما وضع له لفظ المشبه ... (٢).

وكذلك رد رأى السكاكى فيها الأستاذ الدكتور (أحمد موسى) رحمه الله.. لأنه مخالف للواقع، ويجعل الاستعارة مصرحة، وليست مكنية، فقال بعد أن ذكر رأيه مفصلا: " وهذا المذهب مردود بثلاثة أمور:

(أ) أن ما قاله من أن لفظ المنية مستعمل في المشبه به.. مخالف للواقع، لأن القائل (وإذا المنية أنشبت أظفارها) لم يرد أظفار الموت المتخيلة، فهو لم يستعمل المنية إلا في معناها الموضوعة هى له، وهو الموت، لا السبع.

(ب) قوله إن لفظ المنية نقل من مطلق موت إلى موت متحد بالسبع يقتضى أن

(١) المطول ص ٤٠٠

(٢) حاشية السيد الشريف على المطول ص ٤٠١

يكون مجازا مرسلا من قبيل إطلاق المطلق على المقيد، لا مجازا علاقته المشابهة حتى يكون استعارة، وكلامنا في الاستعارة، لا في المجاز المرسل.

(جـ) إنه لا وجه لتسمية الاستعارة حينئذ مكنية، بل هي جديرة بأن تسمى مصرحة، لأن اللفظ الذى سماه استعارة مصرح به " (١).

سلك المجاز العقلى في الاستعارة بالكناية عند السكاكى

عقد (السكاكى) عقب الانتهاء من الكلام عن الاستعارة فصلا في المجاز العقلى، عرض فيه مسائله، وقضاياه، وبعد فراغه من الحديث عنه قال " هذا تقرير للكلام في هذا الفصل بحسب رأى الأصحاب من تقسيم المجاز إلى لغوى، وعقلى، وإلا فالذى عندى هو نظم هذا النوع في سلك الاستعارة بالكناية بجعل الربيع استعارة بالكناية - يقصد في قولهم أنبت الربيع البقل - عن الفاعل الحقيقى بوساطة المبالغة في التشبيه، على ما عليه مبنى الاستعارة كما .... عرفت، وجعل نسبة الإنبات إليه قرينة الاستعارة .." وإننى بناء على قولى هذا ههنا، وقولى ذلك في فصل الاستعارة التبعية ... أجعل المجاز كله لغويا..." (٢).

والاستعارة بالكناية عنده - كما سبق أن يذكر لفظ المشبه ويراد المشبه به ادعاء - فمثلا - كما ذكر هنا في قولهم أنبت الربيع البقل ذكرت كلمة الربيع، وأريد منها الفاعل المختار، وهو الله تعالى بقرينة نسبة الإنبات إليه، وهو من لوازم المشبه به، حيث شبه الربيع بالفاعل الحقيقى، ثم أفرد الربيع بالذكر، مراداً به الفاعل الحقيقى...(٣).

---

(١) البلاغة التطبيقية ص ٢١٠ .
(٢) المفتاح ص ١٨٩ .
(٣) ينظر المطول ص ٦٦ .

نقض مذهب السكاكى بإدخال المجاز العقلى في الاستعارة بالكناية:

علمنا – مما سبق قريبا – أن البلاغيين نقضوا رأى (السكاكى) في الاستعارة بالكناية، وأكدوا أن المشبه فيها مستعمل في معناه الحقيقى، وبناء على ذلك يمتنع قيام الإنبات الحقيقى بالربيع في قولهم أنبت الربيع البقل، لأن الربيع قادر... على سبيل الادعاء، فيضطر إلى القول بالمجاز العقلى، ويصير سعى السكاكى في نفى المجاز العقلى بنظمه في سلك الاستعارة بالكناية ضائعا، وادعاء القادرية للربيع لا يجدى نفعا، لأن الادعاء لا يخرجه عن معناه الوضعى... [1].

الاستعارة التبعية

الاستعارة التبعية عند السكاكي وغيره بوجه عام – كما هو معلوم – ما كان اللفظ المستعار فيها فعلاً، أو اسما مشتقًّا، أو حرفا، وسميت تبعية، لأنها تابعة في إجرائها، لإجرائها في المصدر أولاً فقولنا – مثلاً – نطقت الحال بكذا أي دلت، استعير المصدر وهو النطق أولاً للدلالة، ثم اشتق منه (نطق) بمعنى دل على طريق الاستعارة التبعية في الفعل، وذلك لأن المصدر هو المعنى المتحقق، المقرر، أما الأفعال والمشتقات فهي معان متغيرة متجددة في مفهومها، فلابد أن تجري في المعنى الثابت القابل للصفة، وهو المصدر، ثم تجري في المشتقات، والحروف، ومرد ذلك إلى أن الاستعارة أساسها التشبيه، والتشبيه يقتضي أن المشبه موصوف بوجه الشبه، وهو الجامع، والذي يصلح أن يكون موصوفاً هو الحقائق التى لها ثبوت، وتحقق في الخارج كالأسد، والبحر، أو في العقل كالحلم، والعلم، والكرم، يقول السكاكى فى هذا الصدد: "الاستعارة التبعية هى ما تقع في غير أسماء الأجناس كالأفعال، والصفات المشتقة

---

(١) ينظر حاشية الدسوقى على مختصر السعد ١ / ٢٧٠ شروح التلخيص (بتصرف).

منها، وكالحروف بناء على دعوى أن الاستعارة تعتمد التشبيه، والتشبيه يعتمد كون المشبه موصوفاً، والأفعال، والصفات المشتقة منها، والحروف عن أن توصف بمعزل، فهذه كلها عن احتمال الاستعارة في أنفسها بمعزل، وإنما المحتمل لها في الأفعال، والصفات المشتقة منها مصادرها، وفي الحروف متعلق معانيها، فتقع الاستعارة هناك، ثم تسري فيها، وأعني بمتعلقات معاني الحروف ما يعبر عنها عند تفسيرها..."(١).

ويتابع السكاكي كلامه في كيفية إجراء الاستعارة التبعية قائلاً: " فلا تستعير الفعل إلا بعد استعارة مصدره، فلا تقول نطقت الحال بدل دلت إلا بعد تقرير استعارة نطق الناطق لدلالة الحال على الوجه الذي عرفت من إدخال دلالة الحال في جنس نطق الناطق لقصد المبالغة في التشبيه، وإلحاق إيضاح دلالة الحال للمعنى بإيضاح نطق الناطق له، وكذا إذا قلت الحال ناطقة بكذا بدل دالة على كذا، وكذا قوله عز سلطانه ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [آل عمران: ٢١] في الاستعارة التهكمية بدل فأنذرهم، وقول قوم شعيب ﴿إِنَّكَ لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ [هود :٨٧] (٢).

وموضع الشاهد في الآيتين الأخريين، أن الاستعارة في الفعل (بشر)، و(الحليم) أجريت في المصدر أولاً، ثم أجريت فيهما فيقال في إجرائها في (بشر) شبه الإنذار بالتبشير بجامع إدخال السرور في كل، ثم استعير التبشير للإنذار، ثم اشتق منه الفعل (بشر) بمعنى أنذر للتهكم والسخرية بعد تنزيل التضاد بينهما منزلة التناسب، بقصد السخرية بجامع إدخال المسرة، وإن كانت في البشارة متحققة وفي الإنذار متخيلة.

ويقال في إجرائها في آية (هود) شبه السفه، والغي بالحلم والرشد، واستعير كل

(١، ٢) المفتاح ص ١٨٠ .

من المصدرين المشبه بهما للمشبهين، واشتق من الأول (حليم) بمعنى سفيه، ومن الثاني (رشيد) بمعنى غوي، وذلك بعد تنزيل السفه، والغي منزلة الحلم، والرشد .

الاستعارة في الحرف :

ويستطرد (السكاكي) في بيان كيفية إجراء الاستعارة في الحرف فيقول : "وفي الحروف متعلقات معانيها، فتقع الاستعارة هناك ثم تسرى فيها وأعني بمتعلقات معاني الحروف ما يعبر عنها عند تفسيرها، مثل قولنا من معناها ابتداء الغاية، وإلى معناها انتهاء الغاية، وكي معناها الغرض، فابتداء الغاية، وانتهاء الغاية، والغرض ليست معانيها، إذ لو كانت هي معانيها، والابتداء، والانتهاء والغرض أسماء، لكانت هي أيضاً أسماء، لأن الكلمة، إذا سميت اسما لمعنى الاسمية لها، وإنما هي متعلقات معانيها، أي إذا أفادت هذه الحروف معاني، رجعت إلى هذه بنوع استلزام.. وعلى هذا لا تستعير الحروف إلا بعد تقدير الاستعارة في متعلق معناها [1] .

ومن الأمثلة التي ذكرها للاستعارة في متعلق معنى الحرف لام العاقبة في قول الله تعالى : ﴿ **فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا** ﴾ [القصص : ٨] فإنه يجرى الاستعارة أولاً في متعلق معنى الحرف (اللام هنا) ثم يستعير اللام، فيقال – مثلاً – شبهت العداوة والحزن المترتبان على الالتقاط بالعلة الحقيقية، وهي المحبة بجامع ترتب كل منها على الالتقاط، وتبعاً لذلك استعيرت اللام من معناها الحقيقي، وهو ترتب العلة الحقيقية على الالتقاط، لترتب غير العلة الحقيقية، على سبيل الاستعارة التصريحية، والقرينة هي دخول اللام على العداوة والحزن، يقول : "وإذا

---

(١) المفتاح ص١٨٠ .

أردت استعارة لام الغرض قدرت الاستعارة في معنى الغرض، ثم استعملت لام الغرض هناك، مثل أن يكون عندك ترتب وجود أمر على أمر، من غير أن يكون الثاني مطلوباً بالأول، ويكون الأول غرضا فيه، فتشبهه بترتب وجود بين أمرين مطلوب بالأول منهما الثاني، ثم تستعير للترتب المشبه كلمة الترتيب المشبه به في ضمن قرينة مانعة عن حملها على ما هي موضوعة له، فتقول إذا رأيت عاقلاً قد أحسن إلى إنسان، ثم آذاه ذلك إنه قد أحسن إليه ليؤذيه، ومن ذلك قوله علت كلمته ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾" (١).

قرينة الاستعارة التبعية:

تطرق (السكاكي) بعد فراغه من الحديث عن الاستعارة التبعية إلى قرينتها، وعرض صوراً منها، عزاها إلى رأي الأصحاب، أما هو، فقد أبدى رأيا خاصًّا ذكره عقب الانتهاء من بيان هذه القرينة، ومؤداه أنه يرد التبعية إلى مكنية، بجعل القرينة المذكورة استعارة مكنية، ونقل قرينتها إلى التبعية - كما سيأتي إن شاء الله - يقول في قرينة التبعية " واعلم أن مدار قرينة الاستعارة التبعية في الأفعال، وما يتصل بها على نسبتها إلى الفاعل كقولك نطقت الحال، أو إلى المفعول الأول.

كقول ابن المعتز (قتل البخل وأحيا السماحا) أو إلى الثاني المنصوب كقول الآخر (صبحنا الخزرجية مرهفات) وكقول الآخر (نقريهم لهذميات) أو إلى المجرور كقوله علت كلمته ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١] أو إلى الجميع كقوله:

---

(١) المفتاح ص ١٨١.

تقرى الرياح رياض الحزن مزهرة ... إذا سرى النوم في الأجفان إيقاظاً

هذا ما أمكن من تلخيص كلام الأصحاب في هذا الفصل (١) وأود أن ألقي الضوء على هذه القرائن، وأكمل الأبيات الناقصة(٢). فقول ابن المعتز يمدح والده المعتز:

جمع الحق لنا في إمام ... قتل البخل، وأحيا السماحا

استعير فيه القتل لإزالة البخل، والبخل معنى من المعانى لا يقتل، فنسبة القتل إلى البخل، أو تسليط القتل على البخل قرينة الاستعارة، ومثله أحيا السماحا استعير الإحياء لإذاعة السماح، وقرينته أيضاً تسلط الإحياء على السماح.

وتكون القرينة في المفعول الثاني، كما في قول كعب بن زهير:

صبحنا الخزرجية مرهفات ... أباد ذوي أرومتها ذووها

كانت العرب تقول في تحية الصباح عم صباحاً، والخزرجية هم الخزرج الموجودون في المدينة، والمرهفات السيوف المرققة الحادة، و(الأرومة) الأصل، والضمير في أرومتها عائد إلى الخزرج، وفي (ذووها) عائد إلى مرهفات، فاعل متأخر والشاهد في (صبحنا) لأنه في الأصل بمعنى التحية، والسلام صباحاً، استعير لضربهم بالمرهفات على سبيل التهكم، أي أننا بدل أن نلقي عليهم تحية الصباح، ضربناهم بالسيوف، وإنما جعلت القرينة المفعول الثاني (مرهفات) لأنه يتعلق بالمفعول الأول حقيقة، فيقول صبحناهم أي ألقينا عليهم تحية الصباح، والذي دل على الاستعارة

---

(١) المفتاح ص ١٨١ .

(٢) أفدت ذلك من الإيضاح مع البغية ص ١٢٥ والمطول ص ٣٧٦ وما بعدها .

المفعول الثاني، فهو موضع القرينة ونظير صبحنا (الخزرجية) قول الشاعر:

نقريهم لهذميات نقد بها ما كان خاط عليهم كل زراد

فيكون الشاهد تسلط القرى على (لهذميات) على سبيل التهكم أيضاً، لأن القرى تقديم الطعام للضيف، فإذا كان المقدم سيوفا قاطعة، كان تهكما واستهزاء بهم، وإنما كانت القرينة المفعول الثاني لأن الأول يمكن أن يكون حقيقة فلم يدل على الاستعارة إلا المفعول الثانى، والقرينة في التبشير بالعذاب نسبة الفعل إلى المجرور، فالتبشير يتعلق بالمفعول (هم) على سبيل الحقيقة، إذا كان المبشر به أمراً ساراً، لكن تعلق الفعل (بشر) بالعذاب المجرور دل على أنه استعارة لأن التبشير لا يكون على سبيل الحقيقة، وتكون القرينة تعلق الفعل بالجميع كما في قول الشاعر:

تقري الرياح رياض الحزن مزهرة .... البيت

(فإيقاظا) مفعول ثان لتقري، يقول الشاعر إن للرياح فى الليل تأثيرا على الرياض فتفتح ما كان مغلقاً من كمائم الزهر، والقرينة في (الرياح) فاعل، والمفعول الأول (رياض) وفي (إيقاظاً) المفعول الثاني والمجرور (الأجفان)، وقد استدرك الخطيب القزوينى على السكاكى دخول المجرور وهو الأجفان فى القرينة لأنه متعلق بالفعل سرى لا بالفعل (تقري).

رد التبعية إلى المكنية عند السكاكي

يبدو أن (السكاكي) كان مولعاً بمخالفة البلاغيين الذين سبقوه، أو الأصحاب – كما يعبر عنهم – وقد رزق ذكاء متوقدا، وفطنة ثاقبة، فاستثمر ذلك في إبداء آراء، ونظرات خاصة في كثير من المسائل البلاغية، شغلت البلاغيين الذين جاءوا من بعده

وجعلتهم بين مؤيد ومعارض لما ذهب إليه، ولم تصمد هذه الآراء – حسب علمي – أمام تحقيقاتهم، وتدقيقاتهم، وحسبه أنه اجتهد، وأعمل عقله، واستفرغ جهده، وبمثل ذلك تتقدم العلوم، وتزدهر.

وقد عنت له فكرة – يبدو – أنها كانت قد اختمرت في عقله عرضها بعد أن فرغ من بحث قرينة الاستعارة التبعية مضمونها جعل قرينة الاستعارة من فاعل، ومفعول، ونحوهما استعارة بالكناية، وجعل الاستعارة التبعية قرينة لها على عكس ما قالوه، يقول في هذا الشأن: "هذا ما أمكن من تلخيص كلام الأصحاب في هذا الفصل، ولو أنهم جعلوا قسم الاستعارة التبعية من قسم الاستعارة بالكناية، بأن قلبوا فجعلوا في قولهم نطقت الحال بكذا الحال التى ذكرها عندهم قرينة الاستعارة بالتصريح استعارة بالكناية عن المتكلم بوساطة المبالغة في التشبيه على مقتضى المقام، وجعلوا نسبة النطق إليه قرينة الاستعارة كما نراهم في قوله (وإذا المنية أنشبت أظفارها) يجعلون المنية استعارة بالكناية عن السبع، ويجعلون إثبات الأظفار لها قرينة الاستعارة [١].

ويتابع السكاكي كلامه في رد التبعية إلى المكنية قائلاً ... وهكذا لو جعلوا البخل استعارة بالكناية عن حيّ أبطلت حياته بسيف، أو غير سيف، فالتحق بالعدم، وجعلوا نسبة القتل إليه قرينة، ولو جعلوا أيضاً اللهذميات استعارة بالكناية عن المطعومات اللطيفة الشهية على سبيل التهكم، وجعلوا نسبة القرى إليها قرينة الاستعارة لكان أقرب إلى الضبط [٢] .

---

(١) المفتاح ص ١٨١ .

(٢) نفسه .

نقض رأي السكاكي برد التبعية إلى المكنية :

أثار هذا الرأي الذي ارتآه (السكاكي) برد التبعية إلى المكنية جدلاً واسع النطاق بين البلاغيين حول قرينة المكنية، وهل هي تخييلية دائماً، أو تأتي تحقيقية، وهل هناك تلازم بينهما، أيمكن أن توجد إحداهما دون الأخرى ؟

ولن أستطرد في تتبع هذه التشقيقات، والتفريعات، لأنها ليست الهدف من هذا العمل، ويكفي أن أصل من خلال كلامهم إلى أنه لا غناء عن الاستعارة التبعية، وسيضطر (السكاكي) في نهاية المطاف إلى الاعتراف ببقائها، وعدم إمكان إلغائها، وأول ما يلقانا في هذا الصدد اعتراض (الخطيب القزويني) على هذا الرأي، وذلك في قوله بعد أن حكاه، وعرضه، و« فيه نظر، لأن التبعية التي جعلها قرينة لقرينتها التي جعلها استعارة بالكناية كنطقت في قولنا نطقت الحال بكذا لا يجوز أن يقدرها حقيقة حينئذ، لأنه لو قدرها حقيقة، لم تكن استعارة تخييلية، لأن الاستعارة التخييلية عنده مجاز كما مر، ولو لم تكن تخييلية، لم تكن الاستعارة بالكناية مستلزمة للتخييلية واللازم باطل بالاتفاق[1] . فيتعين أن يقدرها مجازا، وإذا قدرها مجازاً لزمه أن يقدرها من قبيل الاستعارة، لتكون العلاقة بين المعنيين هي المشابهة، فلا يكون ما ذهب إليه مغنياً عن قسمة الاستعارة إلى أصلية وتبعية » [2].

وهكذا فإن (السكاكي) كما يقول الخطيب – لا يمكن أن يقدر (نطقت) في

---

(١) دعوى الاتفاق على تلازم المكنية والتخييلية غير صحيحة لاعند السكاكي، ولا عند السلف – كما في المطول والشروح وغيرها .

(٢) الإيضاح ص ١٦٦ مع البغية .

قولنا نطقت الحال حقيقة، لأنه يرى أن قرينة المكنية تخييلية، وهي عند السلف حقيقة مستعملة فيما وضعت له، ولو قدرها تخييلية كانت مجازا، فيلزمه القول بوجود التبعية.

ويؤكد (السعد) هذا المعنى الذي ذكره (الخطيب) قائلاً: " فلم يكن ما ذكره السكاكي مغنياً عما ذكره غيره... من تقسيم الاستعارة إلى التبعية وغيرها لأنه اضطر آخر الأمر إلى القول بالاستعارة التبعية حيث لم يتأت له أن يجعل نطقت في قولنا نطقت الحال بكذا حقيقة، بل لزمه أن يقدره استعارة، والاستعارة في الفعل لا تكون إلا تبعية[1].

* * *

(١) المطول ص ٤٠٣ وينظر حاشية الدسوقي على مختصر السعد ٤ / ٢١٥ شروح التلخيص.

الفصل الثالث

المباحث التى انفرد بها ابن أبى الإِصبع

- نظراته فى الاستعارة.
- التباس التشبيه البليغ بالاستعارة.
- استعارة من البيان النبوى.
- استعارات شعرية

نظرات ابن أبى الإصبع فى الاستعارة

علمنا – مما سبق – أنه اشترك مع (السكاكى) فى بعض المسائل المتعلقة بالاستعارة، لكنه تناول أموراً لم يتطرق إليها (السكاكى) واستعمل مصطلحات ليست معهودة، ولا متداولة فى كتب البلاغة المشهورة، مثل استعمال الكثيف، واللطيف بدل المحسوس، والمعقول، ومثل قوله إن الكلام الذى يشتمل على الاستعارة إذا جاء على غير وجهه، أفاد المبالغة فى الاستعارة وإذا جاء على وجهه، كانت الاستعارة أقل درجة فى البلاغة، وغير ذلك، وقد لاحظت أنه يأخذ كلام أمثال الشيخ (عبد القاهر) و(الفخر الرازى) و(الزمخشرى) ويتصرف فيها، ويسميها بأسماء من عنده، وقد ارتكز على تعريفه للاستعارة، على اعتبار أن أبلغ الاستعارات هى ما أفادت المبالغة فى التشبيه والظهور، والإيجاز، وسأعرض بعون الله طرفا من نظراته.

مجىء الكلام على وجهه، وغير وجهه:

يبدو أنه قد أفاد هذه التسمية مما ذكره الشيخ (عبد القاهر) عند تناوله لآية ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ وغيرها، وبيانه أن هناك فرقاً شاسعاً بين أن يقال واشتعل شيب الرأس، أو يسند الاشتعال إلى الرأس، وأن ما جاء عليه النظم القرآنى الجليل فى قمة البلاغة، لأنه يفيد أن الشيب عم الرأس كله؛ أو بقى ما لا يعتد به من الشعر لم يلحقه الشيب، – كما سيأتى – إن شاء الله – وقد استثمر (ابن أبى الإصبع) كلام (الشيخ) فذكر أن الكلام الذى تضمن الاستعارة: "يأتى على قسمين قسم يأتى الكلام فيه على وجهه فلا يفيد إلا بعض مطلوبات الاستعارة، ومطلوباتها ثلاثة المبالغة فى التشبيه، والظهور، والإيجاز، وقسم يأتى الكلام فيه على غير وجهه، فيفيد جميع مطلوبات الاستعارة مثال الأول قوله تعالى ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ﴾ [الزخرف: ٤].

استعيرت الأم للأصل فلم تفد هذه الاستعارة سوى الظهور؛ لأن الأم أظهر للحس من الأصل ههنا، ومثال الثانى قوله تعالى: ﴿ وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ فإن وجه الكلام أن يقال، واشتعل شيب الرأس، ولو جاء الكلام كذلك، لأفاد الظهور فقط دون المبالغة، واللفظ الأول يعطى عموم الشيب جميع نواحى الرأس ..."(١). ويتابع (ابن أبى الإصبع) كلامه مفيدا مما سجله يراع (الشيخ) قائلاً: " ... كما أنك إذا قلت اشتعلت نار البيت، صدق ذلك على اشتعال النار فى بعض نواحيه دون بقيته، بخلاف ما إذا قلت اشتعل البيت ناراً، فإن مفهوم ذلك اشتمال النار على كل البيت بجميع أجزائه..." (٢).

وإذا رجعنا إلى كلام (الشيخ) وجدناه قد بين كيفية مجىء الكلام على غير وجهه، لأن الأصل أن يسند الاشتعال إلى الشيب، فعدل عن ذلك، وأسند إلى مكانه، وهو الرأس، فقد قال أثناء معالجته لهذه الاستعارة: "... وذلك أنَّا نعلم أن (اشتعل) للشيب فى المعنى، وإن كان هو للرأس فى اللفظ، كما أن طاب للنفس، وقر للعين، وتصبب للعرق (٣) وإن أسند إلى ما أسند إليه يبين أن الشرف كان لأن سلك به هذا المسلك، وتوخى به هذا المذهب أن تدع هذا الطريق فيه، وتأخذ اللفظ فتسنده إلى الشيب صريحا، فتقول اشتعل شيب الرأس، أو الشيب فى الرأس ... " (٤).

وذكر أيضاً أن إسناد الاشتعال إلى الرأس يفيد الشمول، "وأنه قد شاع فيه، وأخذه من نواحيه، وأنه قد استغرقه، وعم جملته حتى لم يبق من السواد شىء، أو لم يبق منه إلا ما لا يعتد به، وهذا ما لا يكون إذا قيل اشتعل شيب الرأس، أو الشيب فى

---

(١) بديع القرآن ص٢٠ . (٢) نفسه .
(٣) فيما أورده قبل من قولهم طاب زيد نفسا، وقر عمرو عينا، وتصبب عرقاً.
(٤) دلائل الإعجاز ص ١٠٠ ، ١٠١ .

الرأس، بل لا يوجب اللفظ حينئذ أكثر من ظهوره فيه على الجملة، ووزان ذلك أنك تقول اشتعل البيت ناراً، فيكون المعنى أن النار قد وقعت في الشمول وأنها قد استولت عليه، وأخذت في طرفيه ووسطه ... "[1].

وأفاض (الشيخ) في هذا الموضوع في بيان المزية التي تأتي من اللفظ، والتي تأتي من النظم، وتلك التي يأتيها الحسن، والمزية من الناحيتين، وذكر أن آية ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ أتاها الحسن من الجهتين، ومما قاله في هذا الصدد: " ومن دقيق ذلك، وخفيه أنك ترى الناس إذا ذكروا قوله تعالى: ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ لم يزيدوا فيه على ذكر الاستعارة ولم ينسبوا الشرف إلا إليها، ولم يروا للمزية موجبا سواها، هكذا ترى الأمر في ظاهر كلامهم، وليس الأمر على ذلك، ولا هذا الشرف العظيم، ولا هذه المزية الجليلة، وهذه الروعة التي تدخل في النفوس عند هذا الكلام لمجرد الاستعارة ولكن لأنه سلك بالكلام طريق ما يسند الفعل فيه إلى الشيء، وهو لما هو من سببه، فيرفع به ما يسند إليه ويؤتى بالذي الفعل له في المعنى منصوبا بعده... "[2].

والظاهر أن (ابن أبي الإصبع) استثمر هذا التوضيح في تفضيل آية (مريم) على قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ﴾، لأن الاستعارة في الأولى أفادت جميع مطلوباتها، وهي المبالغة في التشبيه، والظهور، والإيجاز، ولم تفد الثانية إلا الظهور وحده، لأن المزية جاءتها من اللفظ لا غير.

التباس التشبيه البليغ بالاستعارة

معلوم أن التشبيه البليغ ما حذف وجهه، وأداته، وقد يحذف منه المشبه - أحيانا - عندما يدل عليه سياق الكلام، وفي هذه الحال يلتبس بالاستعارة في بادئ

---

(١) دلائل الإعجاز ص ١٠٠، ١٠١.

(٢) دلائل الإعجاز ص١٠٠.

النظر، ومن المتعالم فى ذلك قول الله تعالى فى شأن المنافقين ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٨] فقد حذف المشبه فى الآية ، كما يحذف المستعار له.

وقد فرق (ابن أبى الإصبع) بينهما فقال: "ولما كانت الاستعارة تفيد المبالغة فى التشبيه، التبست بالتشبيه المحض فى بعض المواضع فاحتاجت إلى الفرق، وهو أن تعلم أن من حق الاستعارة أن يطوى معها ذكر المستعار البته، فلا يعرف إلا بدلالة الحال عليه، أو فحوى الكلام كقول زهير:

لدى أسد شاكى السلاح مقذف　　　لـه لبد أظفـاره لـم تقلـم

ومن ثَمَّ يتناسى البليغ التشبيه عند أخذه فى الاستعارة، ويضرب عنه صفحا كقول أبى تمام :

ويصعد حتى يظن الجهول　　　بأن له حاجة فى السماء" (١)

ثم قال عقب ذلك مباشرة: " ومن ههنا اختلف العلماء فى قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة: ١٧] فذهب المحققون من علماء البيان إلى أن هذا تشبيه بليغ لا استعارة لكون المستعار له مذكورا (٢) وهم المنافقون وقال من سماه استعارة قد طوى ذكر المنافقين فى الجملة بحذف المبتدأ ..."(٣).

ويلحظ هنا أنه ذكر الآية التى تشير إلى المنافقين، وغفل عن موضع الشاهد فى الآية التى تليها وهو ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ ....﴾ ويتابع (ابن أبى الإصبع) كلامه مبتدئا

---

(١) بديع القرآن ص ٢٦ .　　　(٢) الأدق أن يقال لكون المشبه مذكوراً.

(٣) بديع القرآن ص ٢٦، ٢٧ .

بإكمال قول الذين عدوه استعارة فيقول: "... ونظيره قول الفرزدق للحجاج:

أسد عليَّ وفى الحروب نعامة فتخاء تنفر من صفير الصافر

وليس بشىء – يقصد القول بأنه استعارة – فإن الكلام فى الآية قد صدر بأدلة التشبيه، والضمير المضاف إليه فى (مثلهم) عائد إلى المنافقين ..." (١).

ويلحظ أنه نسب البيت الذى قيل فى الحجاج إلى الفرزدق، ووافقه محقق كتاب (بديع القرآن) على هذه النسبة، والواقع أنه (لعمران بن حطان) وبعده:

هلا برزت إلى غزالة فى الوغى بل كان قلبك فى جناحى طائر

صدعت غزالة قلبه بفوارس تركت مدابره كأمس الدابر

ألق السلاح وخذ وشاحى معصر واعمد لمنزلة الجبان الكافر (٢)

جاء فى شواهد الكشاف (أن شبيب الخارجى وأمه جهيزة وامرأته غزالة كانوا فى غاية الفراسة، فدخلوا الكوفة فى ألف وثلاثين فارسا، وفيها حينئذ الحجاج، ومعه ثلاثون ألف مقاتل فحاربوه سنة كاملة حتى هرب منهم فعيره عمران بذلك أى أنت كالأسد) (٣).

بقى أن أشير إلى أن (ابن أبى الإصبع) فى هذا التفريق اقتفى أثر الزمخشرى، وترسم خطاه، ونقل عنه، وكلمات (الكشاف) بادية فى كلامه، فقد تساءل صاحب الكشاف، وهو يتناول قوله تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ﴾ قائلا: " فإن قلت: كيف طريقته عند علماء البيان؟ قلت: طريقته قولهم هم ليوث للشجعان،

---

(١) بديع القرآن ص ٢٧ .

(٢) ديوان شعر الخوارج ص ١٥٥ تحقيق : الدكتور إحسان عباس ص ١٨٤ – دار الشروق.

(٣) شواهد الكشاف ص ٤٠ .

وبحور للأسخياء، إلا أن هذا فى الصفات وذاك فى الأسماء ... فإن قلت: هل يسمى ما فى الآية استعارة؟ قلت: مختلف فيه، والمحققون على تسميته تشبيها بليغاً، لا استعارة؛ لأن المستعار له مذكور، وهم المنافقون، والاستعارة إنما تطلق حيث يطوى ذكر المستعار له، ويجعل الكلام خلوا عنه، صالحا لأن يراد به المنقول عنه، والمنقول إليه، لولا دلالة الحال، أو فحوى الكلام، كقول زهير:

لدى أسد... البيت ....

ويتابع صاحب الكشاف كلامه قائلا: "ومن ثم ترى المفلقين السحرة منهم كأنهم يتناسون التشبيه، ويضربون عن توهمه صفحا، قال أبو تمام:

ويصعد حتى يظن الجهول ....

وليس لقائل أن يقول طوى ذكرهم فى الجملة بحذف المبتدأ فانساق إلى تسميته استعارة، لأنه فى حكم المنطوق به، نظيره قول من يخاطب الحجاج:

أسد على .... البيت [1]

استعارة من البيان النبوى

ومن الاستعارات التى انفرد بذكرها (ابن أبى الإصبع) ولم يأت لها ذكر عند (السكاكى) ما أورده من استعارة كلمة (فحمة) للظلمة الشديدة فى وقت العشاء، عندما يقبل الليل، وتتراكم ظلماته، بعضها فوق بعض، وقد نوه بها، وأعلى منزلتها لما اتسمت به من نباهة شأن، وحسن بيان، جاء ذلك فى قوله – صلى الله عليه وسلم: "ضموا مواشيكم حتى تذهب فحمة العشاء" .

---

(١) الكشاف ١/٣٩، ٤٠ .

وقال (ابن أبى الإصبع) عقب إيراد الحديث : "فاستعار ﷺ – للعشاء الفحمة لقصد حسن البيان؛ لأن الفحمة ههنا أظهر للحس من الظلمة، فإن الظلمة تدرك بحاسة البصر فقط، والفحمة تدرك بحاستى البصر، واللمس، لأنها جسم، والظلمة عرض فكان ذكرها – أعنى الفحمة أحسن بيانا من ذكر الظلمة"(١) .

وقد كررت هذه الاستعارة فى عدة روايات للحديث (٢) وقد أبان صاحب (لسان العرب) معنى (فحمة العشاء) بعد إحدى رواياته قائلاً : وفحمة العشاء شدة سواد الليل، وظلمته، وإنما يكون ذلك فى أوله، حتى إذا سكن فوره قلت ظلمته(٣) .

استعارات شعرية

ومن الاستعارات التى أشاد بها (ابن أبى الإصبع) وأبان حسنها، لأنها تنقل الأخفى إلى الأظهر، وتبرز المعنى في صورة آنق، وأعجب ما جاء في قول امرئ القيس :

وليل كموج البحر أرخى سدوله   علىَّ بأنواع الهموم ليبتلى

فقلت له لما تمطى بصلبه   وأردف أعجازا وناء بكلكل

وقبل أن أعرض كلامه حول هذه الاستعارات، أود أن أعرج على ما قاله الشيخ (عبد القاهر الجرجانى) في البيت الثانى بأسلوبه الفذ، وبيانه الخلاب، لأظهر مدى

---

(١) التحرير والتحبير ص ٩٩، ١٠٠ .

(٢) من هذه الروايات قوله ﷺ : «اكفتوا صبيانكم حتى تذهب فحمة العشاء» النهاية فى غريب الحديث والأثر، ٣ /٤١٧ . وينظر المجازات النبوية للشريف الرضى ص٢٥٠ .

(٣) لسان العرب (فحم) .

تأثر اللاحقين به، ومنهم (ابن أبى الإصبع) يقول الشيخ: " ومما هو أصل في شرف الاستعارة أن ترى الشاعر قد جمع بين عدة استعارات، قصدا إلى أن يلحق الشكل بالشكل، وأن يتم المعنى، والشبه فيما يريد، مثاله قول امرئ القيس:

فقلت له لما تمطى بصلبه   وأردف أعجازا وناء بكلكل

لما جعل لليل صلبا قد تمطى به، ثنى ذلك فجعل له أعجازا، قد أردف بها الصلب، وثلث فجعل له كلكلا، قد ناء به، فاستوفى له جملة أركان الشخص، وراعى ما يراه الناظر من سواده، إذا نظر قدامه، وإذا نظر إلى خلفه، وإذا رفع البصر ومده في عرض الجو " [١].

وقد تأثر (الفخر الرازى) بما قاله الشيخ، ونقله برمته تقريبا [٢] واستلهم (ابن أبى الإصبع) فيما يبدو لى كلمات الشيخ، ونظراته حول البيت الثانى، وما فيه من إبداع، وإمتاع فيقول:

"وكذلك قصد في البيت الثانى بقوله (تمطى بصلبه) .... البيت، فإنه أراد وصف الليل بالطول، فاستعار له صلبا يتمطى به، إذا كان كل ذى صلب يزيد في طوله عند تمطيه شيئا، وبالغ في طوله بأن جعل له أعجازا، يردف بعضها بعضا، فهو كلما نفد عجز، ردفه عجز، فلا تفنى أعجازه، ولا تنتهى إلى طرف.... ثم أراد أن يصف الليل بعد نهاية الطول بالثقل على قلب ساهره والضغط لمكابده، فاستعار له كلكلا ينوء به"[٣].

---

(١) دلائل الإعجاز ص ٧٩ .

(٢) نهاية الإيجاز ص ٩١ .

(٣) التحرير والتحبير ص ١٠٠ ، ١٠١ .

أما البيت الأول من بيتى امرئ القيس، فقد أتى فيه بما لم يأت به (الشيخ) ولعله من بنات أفكاره، فقد لمح فيه استعارة الستور المرخاة، لظلمات الليل الحالكة، بعد تشبيهه بأمواج البحر العاتية، يقول بعد ذكر البيتين: " فإن هذا الشاعر استعار لظلمة الليل السدول المرخاة، لما بين المستعار، والمستعار له من اجتماعهما، في منع الأبصار من الإبصار، وفائدة هذه الاستعارة، نقل الأخفى إلى الأظهر، لأن السدول يدرك بحاستى البصر، واللمس، والظلمة تدرك بإحداهما دون الأخرى، ثم تمم بكونه جعل السدول مرخاة، لأن ذكرها، بدون هذا القيد لا يوفى بالقيد الذى قصده من منع رؤية ما وراءها لاحتمال أن تكون مرفوعة ... " (١).

وعلاوة على ما قاله من أن الاستعارة تنقل الأخفى إلى الأظهر دائما فقد ذكر في ختام كلامه حول بيتى امرئ القيس أن الاستعارة أبلغ من الحقيقة عندما قال: "ولأجل هذه المعانى كانت الاستعارة أبلغ من الحقيقة، والعدول إليها أولى لما تعطى من المعانى التى لا تحصل من لفظ الحقيقة " (٢). وهذا أمر مفروغ منه، لا جديد فيه.

(وبعد) فقد انتهت هذه الرحلة مع الاستعارة في صحبة السكاكي، وابن أبى الإصبع، وأحب أن أسجل بعض الملحوظات التي أبديتها خلال هذا العمل وفي مقدمتها أنني وجدت ابن أبى الإصبع قد ذكر في تعريف الاستعارة أسماء العلماء الذين أورد تعريفاتهم، على حين أغفل السكاكي ذكر أسمائهم، واكتفى بالإشارة إليهم باسم السلف، أو الأصحاب، وهذا ديدنه في غالب الأمر.

وفي أنواع الاستعارة باعتبار الطرفين والجامع وازنت بين معالجة كل منهما لبعض

---

(١) التحرير والتحبير ص ١٠٠ .

(٢) نفسه ص ١٠١ .

الاستعارات، وأبديت بعض الملحوظات، منها أن ابن أبى الإصبع قد خالف السكاكي والبلاغيين في جعله المستعار له هو عقوق المكلفين في قوله تعالى ﴿ **فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ** ﴾ وبينت وجه الصواب فيما ذهب إليه.

ولاحظت في ترشيح الاستعارة وتجريدها عندهما أن السكاكي صرح بأن الترشيح يأتي عقب الاستعارة، أما ابن أبى الإصبع، فجعل الترشيح متقدما عليها، ونصرت ما قاله السكاكي بكلام الزمخشري عند تفسير قوله تعالى. في سورة البقرة: ﴿ **أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ** ﴾ [البقرة: ١٦] وكذلك لاحظت أن السكاكي ذكر الترشيح والتجريد، ولم يغلق الباب أمام وجود الاستعارة المطلقة، لكن ابن أبى الإصبع جعلها إما مرشحة، أو مجردة ضربة لازب.

وقد ظهر لي أن ما قاله السكاكي حول ترجيح كون الاستعارة مجازاً لغويًّا، وليس عقليًّا، والتأويل الذي لجأ إليه مسبوق به، أخذه عن الفخر الرازي الذي بين أن الشيخ عبد القاهر انتصر في (أسرار البلاغة) لكونها مجازاً لغويًّا، وفي (دلائل الإعجاز) لكونها مجازا عقليًّا، غاية الأمر أن السكاكي بسط الكلام في هذا التأويل. وقد أوضحت الشواهد التي أوردها لقرينة الاستعارة التبعية، وأكملت الأبيات التي ذكر أنصافها.

وفي الفصل الثالث الذي خصصته لما انفرد به (ابن أبى الإصبع) لاحظت أنه قد أخذ كلام الشيخ (عبد القاهر) والزمخشري، والرازي، وتصرف فيه كما يعن له ويأتي له بأسماء من عنده حسب اجتهاده، كما صنع في مجيء الكلام على وجهه، وغير وجهه، وهذا ما سماه الشيخ الحسن الراجع إلى اللفظ، أو النظم، أولهما معاً وفي التباس التشبيه بالاستعارة لاحظت أنه نقل كلام الزمخشرى برمته عند الكلام عن قوله

تعالى ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ﴾ وقد سها فأورد الآية التي قبلها وأغفل ذكر موضع الشاهد، ومن الملاحظ التي عنت لي أنه نسب قول الشاعر: (أسد علي وفي الحروب نعامة...) إلى الفرزدق، والواقع أنه (لعمران بن حطان) كما جاء في شواهد الكشاف، وغيرها، ولاحظت كذلك أنه متأثر في تناول استعارات امرئ القيس المشهورة في قوله (فقلت له لما تمطى بصلبه.. إلخ) بما ذكره الشيخ (عبد القاهر) والإمام الرازي، وهذه لا تغض من منزلته، وكل يؤخذ من كلامه، ويرد، إلا رسول الله ﷺ.

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات، وصلى الله على سيدنا محمد الصادق الأمين وعلى آله وصحبه أجمعين

المصادر والمراجع

* أسرار البلاغة – عبد القاهر الجرجاني – تعليق محمود شاكر ط. أولى ١٤١٢هـ .

* الأطول للعصام – الآستانه ١٢٨٤ هـ.

* الإفصاح عما تضمنه الإيضاح من مباحث البيان – الدكتور أحمد محمد الحجار.

* الإيضاح – الخطيب القزويني – مع البغية – المطبعة النموذجية ١٩٧٣م .

* بديع القرآن – ابن أبى الإصبع – دكتور حفني محمد شرف – دار نهضة مصر – ط. ثانية .

* البلاغة التطبيقية – الدكتور أحمد موسى مطبعة المعرفة ١٩٦٣م.

* بغية الإيضاح – الشيخ عبد المتعال الصعيدى المطبعة النموذجية ١٩٧٣م.

* التحرير والتحبير – ابن أبى الإصبع ط. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

* التبيان فى المعانى والبيان– للطيبى – تحقيق الدكتور عبد الحميد هنداوى المكتبة التجارية بمكه المكرمة . .

* تلخيص البيان فى مجازات القرآن – الشريف الرضى تحقيق محمد عبد الغنى حسن

* جواهر الأدب – أحمد الهاشمى – ١٩٢٠م مطبعة السعادة.

* حاشية الدسوقى على مختصر السعد – ضمن شروح التلخيص .

* حاشية السيد على المطول على هامش المطول – مطبعة أحمد كامل ١٣٣٠هـ.

* دلائل الإعجاز – عبد القاهر الجرجانى – تعليق محمود شاكر ١٤٠٤ هـ .

* ديوان شعر الخوارج – تحقيق الدكتور إحسان عباس دار الشروق .

* شروح التلخيص .

* الطراز – للعلوى – دار الكتب العلمية – بيروت ١٤٠٢ هـ.

* الكشاف – الزمخشرى – دار المعرفة بيروت .

* لسان العرب ط . دار المعارف .

* المجازات النبوية – الشريف الرضى – شرح طه عبد الرءوف سعد –ط. الحلبى وأولاده.

* مختصر السعد على تلخيص المفتاح – شروح التلخيص .

* المطول – السعد – مطبعة أحمد كامل ١٣٣٠هـ.

* المفتاح – السكاكى – مصطفى البابى الحلبى ط. أولى ١٩٣٧م .

* مشاهد الإنصاف على شواهد الكشاف – الشيخ محمد عليان المرزوقى – مع الكشاف .

* نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز – الفخر الرازى ط. الآداب القاهرة ١٣١٧ هـ .

* النهاية فى غريب الحديث والأثر – ابن الأثير تحقيق أحمد الزاوى وآخر المكتبة العلمية بيروت .

* النكت فى إعجاز القرآن – الرمانى – ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن تحقيق محمد أحمد خلف الله دار المعارف ط. الثالثة.

الفهـــرس

الفصل الثاني: المباحث التي انفرد بها السكاكي

(٣٣ - ٦١)

الموضـــــــــوع	الصفحة

الفصل الثالث : المباحث التى انفرد بها ابن أبي الإصبع

(٦٣ - ٧٣)